

الفصل السابع

الصراع في الشيشان إشكالية الحسم واحتمالات التسوية

محمد عادل

الصراع في الشيشان.. إشكالية الحسم واحتمالات التسوية

محمد عادل

بالرغم من أن قضية الشيشان تمثل في جوهرها بعداً حضارياً ودينياً وهوية ثقافية لشعب مجاهد؛ تُمثل له منظومته الدينية والثقافية أهم دعائم وجوده، وبالرغم من الارتباط العقدي من جانب والارتباط التاريخي الجغرافي من جانب آخر بالعالم الإسلامي؛ فإن قضية الشيشان لم تنل في كثير من أبعادها ومراحلها الاهتمام الكافي مادياً ومعنوياً من الدول الإسلامية ولو على المستوى البحثي.

والدراسة التي بين أيدينا تضع المسألة الشيشانية بأبعادها المختلفة - القديمة والحالية - تحت البحث، وتحاول الكشف عن أبرز العوامل المؤثرة في القضية في مراحلها المختلفة، والإجابة عن تساؤلات عديدة؛ من أهمها: ما مدى مشروعية مطالبة مسلمي الشيشان بحق تقرير المصير؟ وهل المطلب الاستقلالي مطلب طارئ؟ وما مدى تأثير البعد العقدي في القضية؟

وتسعى الدراسة من وراء ذلك إلى استشراف مستقبل النزاع الروسي - الشيشاني في ظل المتغيرات والثوابت المتعلقة به والمؤثرة فيه، ومدى تأثيرها في احتمالات التسوية المنتظرة، وذلك من خلال البحث في العناصر الآتية:

الشيشان أهمية استراتيجية وهوية حضارية:

تقع الشيشان في منطقة القوقاز ذات الأهمية الاستراتيجية الكبيرة؛ نظراً لكونها نقطة اتصال بين أوروبا ووسط آسيا، ولهذا فإن المؤرخين يعتبرون القوقاز أهم مراكز التحركات السياسية والاقتصادية والهجرات البشرية منذ ظهور الإنسان على وجه الأرض، وقد كان لموقع القوقاز دور بارز في نقل الحضارات بين الشمال والجنوب.

ويغلب على جغرافية الشيشان الطبيعة الجبلية؛ حيث تقع في منطقة جبال القوقاز التي تمتد بطول ٦٠ ميلاً ما بين البحر الأسود غرباً وبحر قزوين شرقاً، وتشكّل هذه الجبال سلسلة متواصلة ومتوازية يزداد ارتفاعها تدريجياً كلما اتجهنا نحو الجنوب، لتصل أعلاها عند قمة «مونت البورس»، وارتفاعها ١٨٤٨١ قدماً، وهي تقع في الشمال الغربي.

والشيشان تقع في الجنوب إلى العاصمة الروسية «موسكو» بأكثر من ١٠٠٠ ميل، ويحدها كل من داغستان وجورجيا وجنوب أوسيتا من الجنوب، وداغستان وروسيا شمالاً، وأوسيتا الشمالية وأنجوشيا غرباً. أما عاصمة الشيشان فهي «غروزني»، وتعني بالروسية: (المهدّد أو المرعب). لكن الشيشانيين أصبحوا يطلقون على عاصمتهم اسماً آخر منذ عدة سنوات هو «جوهر»؛ على اسم رئيسهم الأسبق «جوهر دودايف» الذي استشهد عام ١٩٩٦ م، وتقدّر مساحة الجمهورية الشيشانية بحوالي ١٩,٣٠٠ كم. ونظراً لموقع البلاد على السفوح



الشمالية لجبال القوقاز؛ فإن المياه تتدفق نحوها لتكون عدداً من الأنهار تلتقي عند العاصمة «غروزني»؛ لتؤلف نهر التيرك (الترك).

وتخبي سلاسل الجبال الممتدة على مساحات شاسعة ثروات ضخمة من المعادن؛ فضلاً عن تمتع تلك الجمهورية بموارد طبيعية تشمل إنتاج البترول والغاز الطبيعي، كما أن لها صناعات مهمة تشمل مصانع تكرير البترول، وصناعة البتروكيماويات، والصناعات الغذائية.

وللشيشان أهمية نفطية خاصة، وللدلالة على ذلك يقول الخبراء: «إذا استُغل المخزون النفطي في الشيشان؛ فسيصبح الشعب الشيشاني كشعب منطقة الخليج من حيث القوة الاقتصادية». ولا تعتمد الشيشان على ثروتها المعدنية النفطية فقط؛ بل إن جزءاً كبيراً من الشيشانيين يمتنون الزراعة، وخاصة زراعة الحبوب وقصب السكر والخضراوات ودوار الشمس وتربية المواشي المنتجة للصوف، ومن ثم؛ فإن الشيشان ذات اقتصاد متنوع، ولكنه مرتبط إلى حد بعيد بالدول المجاورة؛ سواء في الإنتاج أو التسويق.

ويزيد سكان جمهورية الشيشان عن مليون نسمة، ويدخل في هذا العدد السكان من عروق أخرى؛ مثل الروس والأنجوش والداغستان والأرمن.

ويتألف الشعب الشيشاني منذ القدم من مجموعة من العشائر ذات الصلة والرحم وذات الخصال المشتركة، والشجاعة أحد مقومات الشخصية الشيشانية الفريدة التي قد تُهزم ولكنها لا تستسلم أبداً، والشيشان عُرفوا بأنهم مقاتلون أشداء أقوياء، ومع ذلك فشجاعتهم مقرونة بنبيل أخلاقهم حتى في الحروب. والحرية لدى الشيشان مقدسة وعزيزة، يقول الكاتب الروسي الشهير «سولجنستين» الذي عاصر ما فعله «ستالين» بالشيشان في معسكرات الإبعاد الجماعي والسجون في وسط آسيا: «لك أن تكسر ظهورهم؛ لكن أحداً لا يستطيع أن ينال من روحهم المعنوية، فقد ظلت نفوسهم نمرأً مقيداً بالسلاسل؛ لأنهم كانوا من الشيشان الذين لا يرهبون الموت».

والشيشانيون مسلمون سُنّة يتبع أغليبيتهم المذهب الشافعي، وهم يتميزون باحترامهم الشديد لرموزهم الدينية، ويغلب على كثير منهم النزعة الصوفية.

ويشكل الإسلام جزءاً أساسياً من شخصيتهم الحضارية؛ لكونها تلقت الإسلام منذ ظهوره ووصله إلى بقاعها، فبلاد القوقاز وصلتها طلائع الإسلام في نهاية عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ حيث أرسل بجيوش الفتح إلى هذه الديار، وأصبح أكثرها جزءاً من دار الإسلام في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وفي أيام الخلافة الأموية صارت القوقاز كلها، بفضل فتوحات مسلمة بن عبد الملك، جزءاً من البلاد الإسلامية.

ومن أكثر ما يُحفظ في التاريخ الإسلامي لمسلمي القوقاز التي ينتمي إليها الشيشانيون؛ أن المغول قاموا بالهجوم على القوقاز أثناء الخلافة العباسية، واحتلوها وعملوا على تدميرها، ولكن حصل ما لم يكن في





حسبانهم؛ صار مسلمو القوقاز يحملون الدعوة الإسلامية للجيش المغولي المحتل، فدخل عدد كبير من المغول في الإسلام حوالي سنة ١٢٥٦م، وامتد سلطان الإسلام إلى روسيا وسيبيريا وموسكو.

تاريخ العلاقة الروسية الشيشانية قديماً وحديثاً:

إن الموقف المتأزم في شمال القوقاز لا يمكن النظر إليه وتحليله خارج بعده التاريخي، والذي يُعتبر عاملاً مهماً، بل إنه في غاية الأهمية لفهم حقيقة الموقف والنتائج المتوقعة مستقبلاً، لقد خاضت الشيشان ضد سيطرة روسيا القيصرية عدة حروب متتالية ومتواصلة لعدة قرون، ومنذ القرن السادس عشر الميلادي أُريقَت دماء كثيرة بنهر العلاقات الروسية-الشيشانية، وسالت على سفوح جبال القوقاز أنهار من الدم، كان مدادها مئات الآلاف من المجاهدين.

وشهدت الشيشان خلال الحكم القيصري وحتى الآن سياسات وحيدة الوجهة وإن اختلفت أشكالها؛ هدفها «التذويب» القسري للأعراق والديانات، ولم تكن النتيجة إيجابية بأي حال من الأحوال.

ويمكن تقسيم الصراع الروسي-الشيشاني إلى المراحل الآتية:

أولاً: في عهد روسيا القيصرية:

فقد بدأت روسيا زحفها نحو القوقاز بعد القضاء على جمهورية التتر واقتحام قازان عام ١٥٧٢م، واتبعت في ذلك سبيل الحملات العسكرية وتوطين القوزاق؛ خاصة عندما سلك قيصر روسيا سبيل حملته الأولى في عام ١٧٨٣م لإنشاء خط يربط ما بين روسيا وبين ممتلكاتها الجديدة في جورجيا، وهو الأمر الذي أدى إلى سلسلة من الثورات داخل الشيشان وجمهوريات الجبل.

وفي أواخر القرن الثامن عشر زادت أطماع روسيا القيصرية في منطقة القوقاز في عهد «كاترينا الثانية» التي بدأت بإرسال جيوش لاحتلال المنطقة، وحاولت «كاترينا» تنصير شعوب المنطقة بالقوة والإجبار.

وحين زحف القياصرة صوب القوقاز واجهوا مقاومة عنيفة؛ حشدتها عدد من المجاهدين الشيشان والداغستان بقيادة الإمام منصور، والإمام شامل، والإمام نجم الدين، وساهموا في ردع الجيش القيصري لسنوات عدة، ومنعوه من إحكام سيطرته على أرضهم. ومارس القياصرة سياسة الإبادة المنظمة لتلك الشعوب، وارتكبوا العديد من المجازر، وقام الروس بمصادرة الأوقاف الإسلامية، وربطوا المساجد وإعادة ترميمها بموافقة مسبقة من السلطات الروسية، بل من الكنيسة الأرثوذكسية نفسها، وادّعى قياصرة الروس أن حروبهم في القوقاز لها مهمة تاريخية، وهي حماية المملكة المسيحية ضد كل الأعداء، وأن على الدول الغربية مساندتها. ومن جانبها لم تحاول دول أوروبا الغربية منع القياصرة من احتلال القوقاز، ولم تستنكر حملات الإبادة المنظمة التي شنها الروس على المسلمين في القوقاز؛ لأنها تشن حملات مماثلة على مناطق أخرى من العالم الإسلامي.



ثانياً: في عهد روسيا الشيوعية :

نشط المسلمون نشاطاً ملحوظاً خلال الحرب العالمية الأولى، وحاولوا الخروج عن الهيمنة الروسية، ولذلك أيدوا الحركة الاشتراكية الشيوعية التي أطاحت بالقيصرية الروسية عام ١٩١٧م بزعامه «لينين».

وحتى يكسب «لينين» التأييد العام؛ نادى «بحرية الأقليات» التي اضطهدتها القيصرية، وأصدر وعوداً - كاذبة - لهذه الأقليات بالانفصال والاستقلال، وعلى الفور قامت جمهوريات إسلامية بالاستقلال وأظهرت رغبتها في إنشاء «دولة إسلامية فيدرالية»؛ ولكن لما ظهرت آثار قوة النظام الشيوعي؛ أصدر «لينين» أوامره بالزحف على البلاد الإسلامية، فاجتاح الجيش الروسي هذه الجمهوريات، وأمعن في حملات الإبادة والتهجير الجماعي للمسلمين بشكل أبشع وأقذر مما كان عليه في العهد القيصري.

لقد قتل «لينين» حوالي ٨ ملايين مسلم، وقتل خليفته «ستالين» أكثر من ٢٠ مليوناً، كما هدمت معظم المساجد والمدارس الإسلامية، وتم تفتيت القوقاز إلى عدة مناطق ودويلات، كما قسمت جمهورية الشيشان إلى مقاطعتي «الشيشان - أنجوشيا». وفي عام ١٩٣٦م كانت الشيشان تغطي أكثر من ثلاثة أرباع ما يحتاج إليه الاتحاد السوفييتي من النفط ومشتقاته. وقد واجه الشيشان الاحتلال الشيوعي بقوة من خلال ثورات عدة ضد الظلم والقهر الشيوعي؛ منها ثورة «إبراهيم قلدقت» عام ١٩٣٤م، وثورة «حسن إسرائيلوف» عام ١٩٤٠م وغيرها، وكان الشيوعيون يقمعونها بالحديد والنار.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية لم تتدخل الشيشان في الصراع بين الفريقين (الشيوعي والنازي)؛ لذلك ونتيجة لعدم تدخل الشيشان في الحرب إلى جانب الشيوعيين؛ أعلنت حكومة «ستالين» أن شعوب الشيشان والأنجوش والقرم هي شعوب «خائنة»، وعليه بدأت في عام ١٩٤٤م بعملية ترحيل جماعي عبر القاطرات الطويلة لشعوب تلك المناطق إلى كازاخستان وسيبيريا المتجمدة، وخربت كل أراضيهم وممتلكاتهم، وهلك عشرات الآلاف نتيجة الجوع والمرض والمعاناة والتعذيب والقهر.

وقام البلاشفة بالخطوة الأقسى، وهي تدمير الإسلام في نفوس المسلمين؛ من خلال عمليات مسخ شاملة لعقيدة المسلمين ودينهم وتقاليدهم تقطع صلاتهم مع تاريخهم وواقعهم، وقد تولى عصر ستالين تصفية الإسلام على الأرض السوفييتية منذ عام ١٩٢٣م حتى موت ستالين عام ١٩٥٣م.

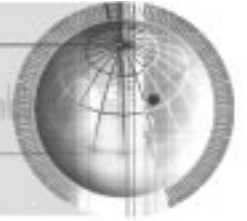
وأهم الخطوات التي قام بها ستالين وأعوانه :

١ - تصفية العلماء والشخصيات الإسلامية.

٢ - تدمير المؤسسة الإسلامية لعلماء الإسلام، ففي عام ١٩٤١م لم يبق إلا ١٠٠٠ مسجد من أصل ٢٥ ألف مسجد كانت مفتوحة عام ١٩٢٠م، وقد أغلقت جميع المدارس الإسلامية وعددها ١٤٥٠٠ مدرسة.

٣ - منع المسلمين من ممارسة الشعائر الإسلامية: فقد تم منع المسلمين من أداء فريضة الحج خلال السنوات ١٩٢٨ - ١٩٤١م.





وفي عام ١٩٥٧ م - أي بعد ١٣ عاماً من إصدار الحكم الجائر بنفي هذا الشعب - أعلن الرئيس السوفييتي «خور تشوف» براءة الشيشان ومسلمي القرم من التهمة التي وُجّهت إليهم، وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم، فعاد الكثير منهم .

وفي عام ١٩٨٢ م بدأت محاولات جديدة لضم جمهوريات القوقاز إلى سلطة موسكو مباشرة، وكالعادة هبَّ شعب الشيشان كله ضد هذا الجور والظلم، واستمر الوضع القائم في ظل الشيوعية حتى انهيارها .

ثالثاً: في عهد روسيا الحالية :

بعد انهيار الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفييتي إلى جمهوريات مستقلة؛ أعلن رسمياً استقلال جمهورية الشيشان عن روسيا الاتحادية في عام ١٩٩١ م، ورفضت القيادة الروسية الاعتراف بالشيشان دولة مستقلة، وفرضت عليها عقوبات اقتصادية، ولكنها لم تهاجم الشيشان عسكرياً بسبب الاضطرابات التي كانت تمر بها روسيا في الأعوام ١٩٩١ - ١٩٩٤ م .

وخلال هذه الفترة تم انتخاب «جوهري دودايف» رئيساً للشيشان، وبدأت الدولة في بناء مؤسساتها المدنية وإعادة الهوية الإسلامية للشعب الشيشاني ببناء المساجد وافتتاح المدارس الإسلامية، وسرعان ما شيد أكثر من ٤٠٠ مسجد في مدن الشيشان وقرأها المختلفة .

وفي أواخر عام ١٩٩٤ م تحرك آلاف من الجنود الروس باتجاه العاصمة الشيشانية «غروزني»، تدعمهم الطائرات والدبابات؛ لبدء فصل جديد من عملية إبادة الشعب الشيشاني المسلم .

ويمكن القول إن أهم دوافع روسيا لغزو الشيشان هي :

- ١ - حلمها بتكوين إمبراطورية روسية على غرار «أوروبا الموحدة» .
- ٢ - إعادة الثقة لنفسها وهبتها أمام العالم .
- ٣ - يُعدُّ الشيشان من أبغض الشعوب إلى الروس؛ كما تذكر الأساطير والروايات الروسية التي تمثل بعداً قوياً في الثقافة الروسية .
- ٤ - السيطرة على الثروات الطبيعية الاستراتيجية في الشيشان، وأهمها إنتاج النفط وتكريره، كما تُعدُّ الشيشان ممراً مهماً لأنابيب النفط في كل المنطقة؛ فمن جروزني العاصمة تمر الأنابيب الآتية من «باكو» على بحر قزوين؛ إلى «نورورسيك» على البحر الأسود .
- ٥ - الخوف من تفكك الاتحاد الروسي .
- ٦ - التحكم في خطوط المواصلات والترانزيت، والخشية من أن تؤدي سيطرة الشيشان على هذه الممرات والطرق الحيوية؛ إلى التضييق على روسيا وخنقها .
- ٧ - توجيه رسالة قوية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، والدول الغربية، أن روسيا لا تزال قوة عظيمة .





٨ - توجيه ضربة وقائية إلى فكرة الانفصال التي قد تراود قوميات أخرى .

وقد اتبعت روسيا سياسة النيران الكثيفة في هجومها الذي يستهدف تدمير كل ما يتعلق بالشيشان؛ إلا أن قواتها أصبحت هدفاً لحرب الشوارع والحروب الخاطفة، وهو الأمر الذي أجبرها على محاولة البحث عن أسلوب يحفظ ماء وجهها للخروج من الشيشان؛ خاصة بعد تزايد ارتفاع الاستنزاف الذي أصاب الآلة العسكرية الروسية، والانتقادات داخل روسيا وخارجها للانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان التي مارستها القوات الروسية هناك .

وعلى الرغم من أن جميع القوى السياسية في روسيا الاتحادية مع بقاء الشيشان ضمن الاتحاد الروسي؛ فإنها وجهت جميعاً انتقادات حادة للعمليات العسكرية فيها؛ سواء بسبب رفضها مبدأ استخدام القوة في تسوية خلاف سياسي (كالقوى الليبرالية)، أو للقصور العسكري وعدم الحسم السريع، وهو الأمر الذي أسفر عن خسائر ضخمة في الأرواح والمعدات؛ لا توافق الفوارق الهائلة في القوة بين موسكو وجروزني .

وتمكنت المقاومة بسبب أساليبها القتالية في نقل المعركة إلى داخل الأرض الروسية، واضطر الروس إلى التفاوض مع المجاهدين، وتوقيع اتفاقية في ٣١/٥/١٩٩٥ م، نصت على وقف الأعمال العسكرية وتبادل الأسرى ونزع سلاح المقاتلين الشيشان بعد انسحاب القوات الروسية، ولكن روسيا لم تلتزم بهذه الاتفاقية؛ مما أدى إلى استئناف الجهاد ضدها مرة أخرى في الشيشان .

ومع تصاعد الحملة الانتخابية في روسيا فاجأ «يلتسن» الجميع بإعلانه أنه مستعد للالتقاء بالزعيم الشيشاني الجديد ياندرباييف، وبعد جهود أوروبية وإسلامية عُقد اللقاء المرتقب في ٢٧/٥/١٩٩٦ م بين ياندرباييف ويلاتسن في موسكو، وتوصل الطرفان إلى اتفاق في ٤/٦/١٩٩٦ م في نارزان عاصمة الأنجوش، وتضمن وقف الأنشطة العسكرية في الشيشان تمهيداً لإجراء مفاوضات سياسية، وتبادل الأسرى خلال أسبوعين، وكان هذا الاتفاق أحد بنود حملة يلتسن الانتخابية، وقد أصدر يلتسن في يونيو ١٩٩٦ م ما بين الجولتين الانتخابيتين مرسوماً بسحب القوات الروسية من الشيشان على مراحل .

وتم عقد اتفاقية خاسيافورت في ٣١/٨/١٩٩٦ م، وتضمنت وقف إطلاق النار وتحديد الوضع النهائي للشيشان في كانون أول/ديسمبر ٢٠٠١ م، كما تضمنت الإشارة إلى بناء العلاقات بين الشيشان والروس على أساس مبادئ القانون الدولي، وأعلن ليبيد بعد التوقيع أنه «سيسحب القوات الروسية، وسنسترد في علاقاتنا بالقواعد الدولية المعمول به»؛ مما يعمق من دلالات استقلال الشيشان، وبعد الاتفاقية عمد المجاهدون إلى إعادة إعمار البلاد وتنظيم شؤونها المختلفة، وتم الاتفاق على تشكيل حكومة ائتلافية مؤقتة لحين إجراء انتخابات برلمانية ورئاسية .

واعتبر الشيشانيون هذا الاتفاق تكريساً لاستقلالهم، والذي أعلنه رئيسهم السابق دودايف في أكتوبر ١٩٩١ م، وأضفى عليه الشرعية القرار الصادر عن البرلمان الشيشاني في مارس ١٩٩٢ م، أما الروس فقد رأوه



تكريساً لشرعية سيطرتهم على المنطقة الجنوبية من الاتحاد السوفيتي . وخرج الروس بالفعل في ١٠/١/١٩٩٧ م، وانتهت الحرب التي كلفت الشيشان ١٥٠ مليار دولار، و ١٠٤ ألف شهيد، بينهم ٤٠٠٠ مقاتل فقط والبقية من المدنيين، وبدأت بعد ذلك في الشيشان مظاهر إعادة بناء الدولة؛ مثل: بناء المحاكم الشرعية وإجراء الانتخابات التي تنافس فيها ١٦ مرشحاً للرئاسة و ٨٥٠ مرشحاً برلمانياً، وفي ٢٧/١/١٩٩٧ م تم اختيار الرئيس و ٦٣ نائباً للبرلمان، وفاز أصلان مسخادوف بمنصب الرئاسة بنسبة (٦٨٪) .

انطلاق شرارة الصراع الحالي:

اكتشفت القوات الروسية عملية كان مخططاً القيام بها من قبل المجاهدين في داغستان في منطقة كومادوا خلال شهر أغسطس ١٩٩٩ م، ومن ثم قامت القوات الروسية بمهاجمة المجاهدين داخل القرية، فقاموا بدورهم بالاستنجد بالشيشان .

وكان مقدم الشيشان لمساعدة إخوانهم في داغستان بداية لتفجير الصراع؛ حيث تدفقت القوات الروسية المدججة بالسلح والطاقرات الحديثة . ومن ثم انطلقت شرارة الصراع الروسي - الشيشاني، ولكن هذه المرة داخل الأرض الداغستانية في القرى القريبة من الشريط الحدودي بين الشيشان وداغستان .

وقد استمر الصراع طوال الفترة من ١٤/٨ إلى ٢٢/٩/١٩٩٩ م محصوراً داخل الأرض الداغستانية؛ غير أن القيادة الروسية قررت يوم ٢٣/٩/١٩٩٩ م اجتياح جمهورية الشيشان نفسها .

الدوافع الروسية للحملة الحالية على الشيشان:

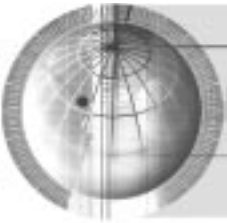
أولاً: اتهمت روسيا الشيشان بالمسؤولية عن التفجيرات التي وقعت في موسكو وداغستان :

حيث شهدت الفترة من ١٤/٨/١٩٩٩ م وحتى ١٣/١٢/١٩٩٩ م ستة تفجيرات؛ ثلاثة في موسكو وثلاثة في جمهورية داغستان، وهذه التفجيرات أودت بحياة ما يقرب من ٣٠٠ مواطن .

وقد ألصقت الحكومة الروسية التهمة بالمجاهدين الشيشان حتى توجد المسوغ لضربهم؛ حيث وجهت اتهاماً صريحاً للشيشان بالمسؤولية عن هذه التفجيرات .

غير أنه لم يمض كثير وقت حتى فُضح الأمر وبدأت الجريمة سافرة؛ فقد اعترف أحد ضباط الروس أن تلك التفجيرات تم تنفيذها من قبل مجموعة خاصة من (إف . إس . ب) وهي المخابرات الروسية؛ بإيعاز من رئيس الوزراء حينها فلادimir بوتين (الرئيس الحالي)، وأوضح الضابط الروسي في اعترافه أن تلك التفجيرات كانت لتحقيق الأهداف الآتية :

- ١ - تغيير الرأي الروسي العام ضد الشعب الشيشاني .
- ٢ - لتكون هذه التفجيرات مسوغاً للحرب ودخول القوات الروسية الشيشان .
- ٣ - ليرتفع اسم «فلادimir بوتين» في صفوف شعبه .



ثانياً: عامل الوقت .. اقتراب الانتخابات :

ويعتبر عامل الوقت من أحد العوامل المهمة التي دفعت القيادة الروسية لاجتياح الشيشان ؛ حيث يتزامن ذلك مع حدثين مهمين على صعيد التطور السياسي في روسيا .

أولهما : يتعلق بانتخابات مجلس البرلمان .

وثانيهما : يتعلق بانتخابات الرئاسة والتي تمت بفوز بوتين .

ثالثاً: اقتراب عام ٢٠٠١م وضرورة القضاء على «ثوار» الجنوب :

مما لا شك فيه أن القيادة الروسية وقتها كانت تدرك تماماً أن عام ٢٠٠١م قد اقترب كثيراً؛ بما يعني أنها ستدخل في مفاوضات مع حكومة الشيشان للبحث عن وضع الشيشان المستقبلي ؛ غير أن النهج الشيشاني في داغستان وقدرة الحكومة الروسية على إلصاق تهمة التفجيرات بالمقاتلين الشيشان قد غير تماماً من الظروف في المنطقة ، وأتاح الفرصة أمام الحكومة الروسية للتغاضي عما تم الاتفاق عليه عام ١٩٩٦م ، ومن ثم التحول نحو حسم الأمور لمصلحة روسيا قبل حلول عام ٢٠٠١م .

رابعاً: رغبة القيادة العسكرية الروسية في الانتقام من المقاتلين الشيشان :

فقد وجه المقاتلون الشيشان إليها ضربات موجعة في الاجتياح الأول ؛ مما أجبرها على وقف القتال وإعلان الاتفاق معهم .

والمتتبع للموقف الروسي ؛ يدرك بوضوح الدور المهم لقيادات الجيش الروسي في تحريك الحرب الحالية ، فالجيش يثابر على الحرب ليحقق مصالحه الخاصة ؛ حيث إنه بفضل الهجمات التي أطلقت في خريف عام ١٩٩٩م تم تمويل موازنة الدفاع بنسبة ١٠٠ ٪ للمرة الأولى منذ عشر سنين ، كما حصل الجيش في عام ٢٠٠٠م على موازنة إضافية بلغت ٦٠ مليار روبل - أي ما يعادل ٢،٥٠ مليار يورو - ؛ من أجل مواصلة حرب الإبادة . لكن الاستفادة الشخصية تحرك العسكريين أيضاً حيث يشاركون في الشيشان بتهريب النفط والخشب الغالي الثمن ، ويبدو أن الجنود والقوات الروسية «خصخصوا» النزاع ولن ينسحبوا منه من تلقاء أنفسهم .

خامساً: مشاعر الإحباط :

وقد ولدها عجز السلطة الروسية عن معالجة الفساد والأزمات الاقتصادية والاجتماعية الخطيرة ؛ مما دفع القيادة الروسية إلى توجيه أنظار الرأي العام الروسي بعيداً عن مشكلاته الحقيقية .

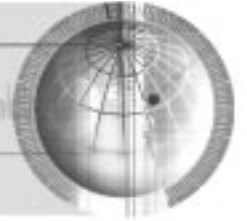
سادساً: القضاء على الحركة الإسلامية المتصاعدة في بلاد الشيشان :

حيث يسبب تنامي التيار الإسلامي قلق الجوار الروسي مخافة انتشار الحركة الإسلامية في البلاد المجاورة .

سابعاً: الأهمية الاستراتيجية التي تمثلها الشيشان بالنسبة لمصالح روسيا الأمنية والاقتصادية :

وفي سبيل تحقيق روسيا لأهدافها في الشيشان جدّدت المجازر والأسلوب الهمجى الذي يمثل في حقيقته





النظرة الدونية للشيشانيين، وقد رصدت العديد من المؤسسات الدولية الحقوقية انتهاكات خطيرة ما تزال مستمرة حتى وقتنا هذا في حق الشعب الشيشاني؛ تضيف مزيداً من العدا لنتاريخ الصراع الدموي .

الخلاصة :

- من الواضح أن النزعة الاستقلالية الشيشانية ليست بالظاهرة الطارئة؛ فتاريخ العلاقات الروسية الشيشانية ليس إلا سجلاً لمحاولات الهيمنة الروسية وحركات المقاومة الشيشانية؛ فإنهم لم يقبلوا أبداً بالسيادة الروسية عليهم وتكررت ثوراتهم، فالاستقلال مطلب شيشاني بحت أصيل ومتجذر في أعماق هذا الشعب، وكما هو معلوم فهو شعب مسلم عقيدة وثقافة وتاريخاً وتراثاً، فلا يوجد أي روابط حقيقية بينه وبين روسيا .
ومما يدعم من هذا المسعى الطابع القومي الشيشاني المتسم بالميل نحو التحرر، وهو طابع مستمد - إلى حد كبير - من التكوين الجغرافي الجبلي لبلاد الشيشان .

- ومن ناحية أخرى؛ فإن التداخل الجغرافي بين روسيا والشيشان والموقع الاستراتيجي للأخيرة كمدخل لروسيا إلى البحر الأسود وثرواتها المعدنية الهائلة؛ كلها عوامل تدفع في اتجاه عزم روسيا على عدم السماح باستقلال الشيشانيين، ومحاولة إضعافهم بالقوة، وضمهم إلى إمبراطوريتهم، وصهرهم في ثقافتهم من خلال استراتيجية ثابتة .

- أن الشيشان كانت جزءاً من روسيا بموجب الفتح والاحتلال فحسب، فلم تنضم طواعية إلى روسيا، ولم تقبل في يوم من الأيام استمرار هذا الوضع الاستعماري .

- اتخذت العلاقة بين روسيا والشيشان في كثير من مراحلها طابعاً دموياً، ومنذ القرن السادس عشر الميلادي مرت العلاقات الروسية - القوقازية بصراعات دموية لم تتوقف حتى الآن، كان مدادها مئات الآلاف من المجاهدين، وهو الأمر الذي غذى المطلب الاستقلالي برافد من الصعب أن ينضب .

- يلعب البعد العقدي في الصراع دوراً محورياً، وكان طابع المقاومة إسلامياً واضحاً^(١)، حيث ارتبطت المقاومة برموز ومحركات وبواعث دينية طوال فترة كفاح الشيشانيين، حيث حمل القادة الدينيون لواء المقاومة، وقد دعم هذا التحليل الميراث التاريخي للعلاقة بين الشيشان وروسيا، وأيضاً تصاعد الرموز الدينية ومفردات الخطاب الديني سواء في الجانب الروسي، أو في الجانب المسلم على وجه الخصوص .

ومن ذلك أيضاً؛ ما يراه البعض من أن الطموح الروسي قد ارتبط بنشاط متزايد للديانة الأرثوذكسية الروسية، وهو الأمر الذي وجد صداه عند المسلمين الخاضعين للسيطرة الروسية، فقد أصرّ يلتسن على أن ينصبه قسيساً روسياً، وصاحب ذلك نمو تعاطف الرأي العام الروسي تجاه الكنيسة، وبذلك بدت روسيا وكأنها تستعيد وجهها القيصري وتعصبها المسيحي الأرثوذكسي، والذي وجد تأكيداً في تأييد روسيا للصرب المتعصبين ضد مسلمي البوسنة والهرسك .

(١) وكانت الصفة الغالبة على قادة المقاومة هي اتباعهم للطرق الصوفية الإسلامية .





أما في جانب مسلمي الشيشان؛ فقد ارتبط صعود دودايف مع تصاعد الصحوة الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز، كذلك حرص دودايف - عندما اختارته جمهورية الشيشان رئيساً لها - على أن يحلف اليمين على المصحف الشريف أمام مفتي الشيشان الشيخ عبد القادر، كذلك أعلن أنه يرتدي «الكفن» استعداداً للقتال حتى الموت، كما أعلن أن كتائب إسلامية يجرى تشكيلها، وأن متطوعين إسلاميين انضموا إلى القوات الشيشانية لمواجهة الغزو الروسي.

الاستراتيجية الروسية في الشيشان.. عوامل الضعف والقوة:

اتسمت الاستراتيجية الروسية قديماً وحديثاً باعتبار الشيشان ذات أهمية خاصة؛ مع تغير في طبيعة العلاقة والتعامل بين الطرفين، وكان التداخل الجغرافي بين روسيا والشيشان، والموقع الاستراتيجي للأخيرة كمدخل لروسيا إلى البحر الأسود، وثرواتها المعدنية الهائلة؛ كلها عوامل تدفع في اتجاه إصرار روسيا على عدم السماح باستقلال الشيشان.

وتتمحور الخطط الاستراتيجية الروسية - خاصة على المستوى الإقليمي - على تدعيم «تماسك» الدولة الروسية وتأكيد «الاتحاد» الروسي.

ففي الخطاب الرسمي الذي ألقاه الرئيس الروسي فلاديمير بوتين في مايو ٢٠٠١م (وفي خطاب مايو ٢٠٠٢م أيضاً) في ذكرى الانتصار على النازية؛ أكد أنه «إذا كانت روسيا تستحضر اليوم عظمة إنجازها في إلحاق الهزيمة وكسر الفاشية؛ فإنه يلزمها أن تواجه بالروح والعزيمة نفسها التطرف والأصولية»؛ في إشارة مباشرة إلى الوضع في القوقاز.

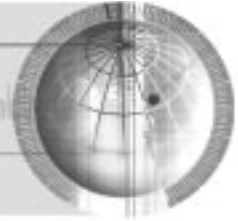
ويبدو أن روسيا استبدلت الأصولية بالنازية سيراً على نهج الولايات المتحدة التي استبدلت الأصولية بالشيوعية.

والملاحظ أن تغيرات مهمة وكبيرة قد جرت في روسيا منذ مجيء الرئيس بوتين إلى السلطة في مجال رصف صفوف الاتحاد الروسي وتقوية البناء الفيدرالي ودور المركز فيه، فخلال الفترة الماضية أضعف بوتين بشدة حكام المناطق والأقاليم الروسية؛ بشكل أدى إلى تقوية المركز، وسحب البساط من تحت أقدام كل من كان يحاول السعي إلى الاستقلال عن روسيا.

وعندما نعلم أن الاتحاد الروسي يتكون من ١٧ جمهورية ذات حكم ذاتي، و ٨ مقاطعات، بالإضافة إلى عشرات الأقاليم وكلها ذات حكم ذاتي؛ يمكننا أن نفهم لماذا تصر موسكو وبشكل غير قابل للنقاش على عدم انفصال جمهورية الشيشان عن الاتحاد الروسي، فالروس يرفضون فكرة الاستقلال بشكل جذري من أجل الحفاظ على وحدة دولتهم؛ لأنهم يعتبرون أن استقلال أي جمهورية أو مقاطعة أو غيرها سوف يؤدي إلى انهيار روسيا من الداخل.

ومن جهة أخرى؛ فإن إقليم شمال القوقاز يعتبر النافذة الروسية على البحر الأسود، وجمهورية الشيشان





تقع في قلب هذا الإقليم ، كما أنها تمثل عصب شبكة المواصلات بين روسيا وشمال القوقاز ؛ بالإضافة إلى موقعها على بحر قزوين ذي الاحتياطي النفطي الكبير .

ومنذ أن بدأت روسيا حربها الثانية على الشيشان ؛ سارت الاستراتيجية الروسية تجاه الشيشان على أربعة محاور متوازية هي :

- ١ - السحق العسكري لقوات المقاومة ومن يتعاون معها .
 - ٢ - المعركة الإعلامية .
 - ٣ - العمل الدبلوماسي لكسب أو تحييد الأطراف الدولية الفاعلة .
 - ٤ - الخداع السياسي في صياغة موقفها من مشروع الاستقلال الشيشاني .
- ولعله من المفيد أن نلقي نظرة على كل محور من هذه المحاور بشيء من التفصيل :
- ١ - الاستراتيجية العسكرية (السحق العسكري) :

دخل الجيش الروسي الحرب هذه المرة باستراتيجية جديدة ، حيث اعتمد في حربه ضد الشيشانيين على الأسلوب النظامي وعلى اعتبار أنهم جيش متكامل ، وذلك على عكس الحرب السابقة (١٩٩٤ - ١٩٩٦ م) ، حيث كانوا ينظرون إلى المجاهدين على أنهم عصابات ، ولذلك فإن الروس استخدموا كل الخطط والأساليب والإمكانيات والاحتياطات التي تستخدم في الحرب بين جيشين من رصد دقيق على كل المحاور وخطط محكمة في الهجوم ، ولم يكتفِ الروس بالجيش النظامي ؛ وإنما جندوا «مرتزقة» من كل مناطق الاتحاد الروسي والقوقاز يطلقون عليهم اسم «كونتاك» ، ويستخدمونهم في العمليات الاقتحامية .

واعتمد الروس في خططهم العسكرية في الشيشان على أسلوب السحق العسكري للخصم اعتماداً على التفوق النوعي والكمي والفارق الكبير في الميزان العسكري لجانب الجيش الروسي ، وفي سبيل حسم المعركة عسكرياً والخوف من تكرار هزيمة جديدة شبيهة لتلك التي تلقوها في الحرب الأولى ؛ فقد لجأ الجيش الروسي إلى استخدام جميع أنواع الأسلحة بما فيها الأسلحة المحرمة دولياً ، واعتمدوا في القضاء على المقاومة الشيشانية أساليب أدت إلى انتهاكات جسيمة لحقوق المدنيين .

ولعل من أشهر تلك الخطط التي اعتمدها الجيش الروسي ما عُرف بخطة «الكنس» أو «المسح» ، وتقضي هذه الخطة بقيام قوات الأمن الروسية ، والتي حُلَّت محل قوات الجيش بعد أن أخفقت مهمة الأخير على مدار سنوات الحرب ، بتمشيط ومسح القرى والبلديات التي تمثل أماكن يشتبه بأن بها مقاتلين والقضاء عليهم في أماكنهم .

وفقاً لهذه الخطة ؛ أُطلقت يد قوات الأمن بشكل غير مسبوق ، فقد اعتبرت قوات الأمن كل شيشاني إرهابياً ، وأعملت آلة القتل بين المدنيين ، واضطر الرئيس بوتين إلى القول : «إن هذه العمليات ضد الإرهاب ،





لا يمكن تفادي وقوع ضحايا مدنيين فيها». ومع ازدياد الوضع سوءاً بدأت التقارير تشير إلى الدور الإجرامي لهذه القوات. ورغم اعتراف قائد روسي كبير، ولأول مرة في تاريخ الحروب في الشيشان- وهو الكولونيل فلاديمير مولتينيسكوي-، بأن جرائم ارتكبت على نطاق واسع عند نقاط التفتيش؛ فإن وزير الداخلية الروسي اعتبر العمليات- على قسوتها- ضرورية، بل تمت بصورة قانونية!

وتحت لافتة محاربة الإرهاب بمفهومها الملتبس؛ أطلقت يد قوات الأمن الروسية في الشيشان بعيداً عن مراقبة المنظمات الحقوقية التي منعت من دخول الأراضي الشيشانية، وأصم حلف شمال الأطلسي الناتو أذنه عن سماع مناشدات تلك المنظمات للوقوف بحزم في وجه تلك الانتهاكات.

وفي الواقع هناك من يتساءل: كيف يمكن لروسيا أن تدّعي أن الشيشان هم من مواطني الاتحاد؛ في حين أن جيشها يتصرف في المكان كقوة احتلال؟!

ويعتبر التحول الأهم في الاستراتيجية الروسية العسكرية هو ما ألح إليه بوتين من إمكانية استخدام السلاح النووي لحسم المعركة إذا اقتضى الأمر ذلك، حيث أشار إلى أن «العقيدة العسكرية الروسية أصبحت أكثر مرونة، وتسمح باستخدام السلاح النووي عندما يتعرض أمن روسيا إلى تهديد لا تستطيع رده بالأسلحة التقليدية»، وهذا يعتبر تغييراً على سياسة الروس بشأن استخدام السلاح النووي؛ حيث كانت عقيدة استخدام السلاح النووي أكثر تشدداً، وهي «أن لا تستخدم روسيا السلاح النووي إلا عندما تتعرض لخطر يحوّلها عن الوجود»، وبلا شك فإن العقيدة الجديدة أكثر تساهلاً ومرونة من العقيدة القديمة.

ولإعطاء نوع من الجدية لتصريحه؛ أمر بوتين قادة إحدى القواعد العسكرية الاستراتيجية في مدينة يوشكار بوضع صواريخ نووية من نوع (توبول ١٢)- والمعدة لضرب أهدافها في عمق أوروبا والولايات المتحدة- على أهبة الاستعداد.

وفي الواقع إن المتأمل لحجم الخسائر الروسية في الشيشان؛ يتأكد أن السياسات العسكرية للروس في الشيشان أثبتت إخفاقاً ذريعاً، فبينما تصر الجهات الرسمية الروسية على أن عدد القتلى من الجنود والضباط الروس حتى الشهور الأخيرة من عام ٢٠٠٣م يقترب من ٥٠٠٠ عسكري منذ بداية الحرب المذكورة؛ ترى لجنة أمهات الجنود الروس، وهي لجنة مستقلة غير حكومية، أن العدد الحقيقي يزيد بثلاثة أضعاف على التقديرات الرسمية؛ أي يصل إلى أكثر من ١٤ ألفاً من القتلى في صفوف القوات الروسية، وإذا صحت معطيات لجنة أمهات الجنود الروس، فهذا سيعني أن روسيا فقدت في الحرب الشيشانية الثانية وحدها ما يعادل أو يزيد قليلاً على عدد الجنود والضباط السوفييت الذين قتلوا في أفغانستان على مدار عشر سنوات من الوجود السوفييتي في هذا البلد.

وأكد تقرير سري أعدته الاستخبارات الألمانية ونشرته صحيفة «دي فيلت» الألمانية؛ أن روسيا لن تكسب الحرب في الشيشان باستخدامها القوة؛ موضحاً أن المقاتلين الشيشان، على الرغم من عددهم القليل للغاية، قد



نجحوا في الاستمرار بالهجمات التي يشنونها وحفظ نضالهم عند مستوى معين . ونقلت وكالة أنباء القوقاز عن الصحيفة الألمانية قولها : إن الوضع في جمهورية الشيشان أخطر بكثير مما تتصوره موسكو ، وأرجعت الاستخبارات الألمانية إخفاق الجانب الروسي في الشيشان لأسباب عدة ؛ منها انهيار معنويات الجنود الروس ، والفوضى الشديدة التي تعم الإدارة والقيادة العسكرية الروسية ، ودعم الشعب الشيشاني للمقاتلين ؛ بالإضافة إلى تفشي الفساد في الجيش الروسي لأبعد الحدود ؛ لدرجة أن صار الجنود يبيعون أسلحتهم للحصول على المال !

واعترف د . بوريس كاغارليتسكي نائب رئيس تحرير صحيفة «نوفايا جازيتا» بأن الاستراتيجية العسكرية الروسية لم تكن ناجحة منذ البداية ؛ لأنهم أخفقوا في القضاء على المجموعات الفدائية المقاتلة ، كما أكد أنه ورغم القوات البرية التي يمتلكها الجيش الروسي ؛ فإنه غير قادر على إلحاق الهزيمة بالمقاتلين الشيشانيين ، كما أن التفوق الجوي للروس تدهور فور حصول المقاتلين على أسلحة مضادة للطائرات ؛ مما جعل الأوضاع تتغير .

بيد أن التجارب السابقة لروسيا خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ؛ تدلنا على أن كل تدخل عسكري روسي قد انتهى بخروج الدولة أو الإقليم المتدخل فيه عن هيمنة روسيا ، ويكفي أن نذكر أمثلة هذا التدخل في المجر ١٩٥٦ م ، وفي تشيكوسلوفاكيا ١٩٦٨ م ، وفي أفغانستان ١٩٧٩ م ، وفي أذربيجان ١٩٩٠ م ؛ لكي ندرك ما سياتر على هذا التدخل في المدى الطويل .

٢ - المعركة الإعلامية :

مهدت القيادة السياسية - العسكرية الروسية لعملياتها بإعداد معنوي للجنود الروس ، كما أعدت الرأي العام الروسي إعداداً صحيحاً لتقبل الاجتياح الروسي للشيشان ، وذلك من خلال استخدام الآلة الدعاية الروسية ، الرسمية والخاصة ، في تحميل الشيشان مسؤولية التفجيرات التي أودت بحياة ما لا يقل عن ٣٠٠ مواطن روسي .

كما نجحت الآلة الإعلامية الروسية خلال عام ٢٠٠٠ م في تشويه صورة الشيشانيين في عيون الرأي العام الروسي ، ونجحت بفضل خططها الإعلامية المحكمة التي تقوم على التعقيم والانتقاء في البث والنشر ؛ أن تخفف - إلى حد كبير - من الضغط الداخلي على الكرملين ، كما استطاعت سياسات الإغلاق في منع وصول الحقيقة إلى الرأي العام العالمي ، ونجحت أحداث سبتمبر وما تلاها في تعميق الجرح الشيشاني ، وفي تحويل قضية شعب يبحث عن الاستقلال إلى شعب يُتهم بأكمله بالإرهاب !

وحاول الإعلام الروسي أن يربط بين العمليات الفدائية التي تجري في الشيشان وبين التفجيرات التي وقعت في الرياض والمغرب في التوقيت نفسه ؛ للإشارة إلى تورط تنظيم القاعدة فيها ، ولتسويق الحرب في الشيشان ؛ غير أن العديد من المراقبين نفوا هذه الصلة . ورغم إدانة مسخادوف لتلك العمليات فإن روسيا استمرت في اتهمه بالإرهاب .



ويعتبر الدور الإعلامي الروسي أفضل حظاً وأكثر نجاحاً من السياسة العسكرية؛ إذ لعبت دوراً بارزاً في تسويق هذه الحملة التي اختصرت في عبارة واحدة: «هؤلاء إرهابيون، ونحن في تحالف دولي لمكافحة الإرهاب»، ومزجوها بإجراءات عدة؛ من بينها إعادة غلق الحدود، ومنع تسريب أخبار عن الحرب في الشيشان سوى ما يمليه الروس على الإعلام. على حد تعبير أحد الكتاب بموقع «معهد الحرب والسلام» بلندن..

٣ - التحرك السياسي الروسي لحصار المجاهدين وقطع الدعم عنهم:

يبدو أن روسيا أيقنت بعجزها عن هزيمة المجاهدين الشيشانيين وحدها، وهو الأمر الذي يحتم عليها إقامة علاقات تعاون مع الدول المجاورة لها، والتي يستخدمها المجاهدون الشيشان قاعدة خلفية لانطلاقهم؛ من أجل تضيق الخناق على هؤلاء المقاتلين وحصرهم في منطقة معينة تسهل فيها القضاء عليهم، وكان ذلك أحد أسباب الاتفاق بين روسيا وجورجيا بعد سلسلة من الخلافات والانتقادات المتبادلة بين الطرفين.

اتفق الجانبان الروسي والجورجي على تطبيق اتفاق يتضمن القيام بعمليات مراقبة مشتركة على طول الشريط الحدودي، وينظم وسائل الاتصال وتبادل المعلومات.

وكان قد سبق ذلك اتفاق آخر في ٦/٩/٢٠٠٢م بين البلدين؛ يتضمن القيام بعملية مشتركة لتطهير إقليم بانكيزي من الميليشيات الشيشانية، حيث تعتبر بانكيزي قطباً جاذباً للمقاتلين الشيشانيين الساعين لطردهم خارج وطنهم الأم.

وقد ربطت روسيا بين قضائها على المقاتلين الشيشانيين في جورجيا وبين قضاء الولايات المتحدة على تنظيم القاعدة في أفغانستان؛ لدرجة وصلت إلى حد اعتبار أن الهجوم على الشيشانيين في جورجيا يعد ماثلاً للهجوم على القاعدة في أفغانستان.

وقد سبق للمقاتلين الشيشانيين أن قاموا بعدة عمليات انطلاقاً من الأرض الجورجية، وهذا ما أثار حفيظة الروس وجعلهم يعرفون على القيام بعمليات عسكرية ضد جورجيا من أجل استئصال المقاتلين الشيشان. وانتهت المفاوضات التي قرر فيها بوش وبوتين التعاون معاً في حل الصراعات الإقليمية؛ إلى عقد اتفاق بين روسيا وجورجيا، يقوم من خلاله الطرفان بتأمين الحدود المشتركة بين الجانبين لمنع المقاتلين الشيشان من التسلل إلى الأرض الجورجية وأياً كان مصير الاتفاق؛ فإن المجاهدين الشيشان ربما تعرضوا لخسارة من توقع مثل هذا الاتفاق، حيث سيحرمهم من قاعدة استراتيجية بالنسبة لهم كانوا يستخدمونها للهجوم على القوات الروسية، وإن كان ذلك لن يوقف المقاومة إلا أنه قد يحد منها.

حصار الشيشان بعد ١١ سبتمبر:

منذ ظهرت معطياته خلال الأشهر التي أعقبت الحادي عشر من سبتمبر التي عمقت الجرح الشيشاني وحوّلت المشكلة من قضية شعب يسعى للاستقلال إلى مشكلة جماعات من الإرهابيين وفقاً لمعايير ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، تلك المعايير التي لم يفت بوتين أن يستثمرها مزايداً بأن بلاده تقف مع واشنطن في



خندق واحد ضد إرهاب الإسلاميين، وبعد الحادي عشر من سبتمبر ارتفع منحني انتهاكات حقوق الإنسان على نحو تشير تقارير المنظمات الحقوقية أنه غير مسبوق.

وعلى جبهة كسب أو تحييد الدول الكبرى والدول الإسلامية؛ فقد لوحظ أثر ذلك في الفرق الشاسع بين موقف هذه الدول من حرب روسيا ضد الشيشان في الفترة ١٩٩٤-١٩٩٦م، والحرب الحالية التي بدأتها روسيا في شهر أغسطس ١٩٩٩م وما زالت مستمرة وتزداد وحشية وقتلاً وتدميراً وتهجيراً. في السابق كان الإعلام الغربي والعربي يدين الاعتداء الروسي ويشيد ببطولة أهل الشيشان؛ أما الآن فإن هذا الإعلام أخرج!! وفي سبيل إيقاف الدعم الآتي للشيشان من البلاد الإسلامية؛ فقد أرسلت الخارجية الروسية وفوداً إلى مختلف البلاد الإسلامية من عربية وغير عربية لتشرح لها أنها فقط ضد الإرهاب والإرهابيين.

ولا شك أن أحداث ١١ سبتمبر جاءت فرصة لروسيا لكسب تأييد الغرب وتحييد العالم الإسلامي في حملتها ضد الشيشان، حيث أيدت روسيا الحملة الأمريكية على الإرهاب، وسعت إلى مقايضة هذا التأييد باعتراف أمريكي بنفوذ روسيا في آسيا الوسطى ومساندة حملتها في الشيشان؛ باعتبار الشيشانيين جزءاً من «الإرهاب الدولي» الذي تحاربه الولايات المتحدة.

وسعت روسيا للتقارب مع العالم الإسلامي، وقد ظهر بوضوح في قرار الرئيس الروسي فلاديمير بوتين تقديم ترشيح بلاده لعضوية منظمة المؤتمر الإسلامي، ونقلت وكالة إنترفاكس الروسية عن المندوب الروسي لدى (منظمة المؤتمر الإسلامي) «بنيامين بوبوف»؛ أن مبادرة موسكو خلقت أجواء إيجابية، وأورد «بوبوف» مثلاً على هذا التحسن، وهو التفهم المتزايد لسياسة مواجهة المقاتلين في الشيشان!

وكان الرئيس الروسي أعلن خلال زيارة قام بها إلى قمة منظمة المؤتمر الإسلامي خلال اجتماع ماليزيا عن رغبته في تحسين علاقة روسيا بهذه المنظمة، وبضم بلاده بصفة مراقب في المرحلة الأولى إلى هذه المنظمة.

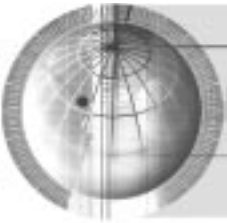
٤ - المراوغة السياسية الروسية في صياغة موقفها من مشروع الاستقلال الشيشاني:

دأبت موسكو على الترويج لثلاثة مشروعات سياسية؛ ظاهرها إقرار السلام في الجمهورية التي أعيتها الحرب، وهذه المشروعات الثلاثة هي: دستور جديد للجمهورية، قرار بالعفو عن المقاتلين الشيشان، والتجهيز لانتخابات رئاسية.

أولاً: الدستور:

في شهر مارس من عام ٢٠٠٣م أجرت روسيا عملية انتخابية في الشيشان للتصويت على دستور جديد للشيشان، فالدستور «القديم» (الذي صيغ خلال فترة إعلان الاستقلال من جانب واحد في نوفمبر ١٩٩١م) حدد علاقة روسيا بالشيشان بالانفصال التام.

وبعد الحرب الشيشانية الأولى وقّعت روسيا والشيشان اتفاقية في أغسطس ١٩٩٦م، أرجأت البت في استقلال الشيشان عن روسيا إلى عام ٢٠٠١م، وجلست موسكو في العام التالي ١٩٩٧م مع حكومة أصلان



مسخادوف، وتم التوصل إلى اتفاقية سلام بين الجانبين .

غير أن الحرب الثانية التي شنها الكرملين في سبتمبر ١٩٩٩م حققت لروسيا التحلل من الالتزام؛ بالتفاوض حول استقلال الشيشان قبل أن يأتي عام ٢٠٠١م.

وهكذا شهدت الشيشان في مارس ٢٠٠٣م استفتاء مزعوماً على دستور جديد للجمهورية، وبدلاً من أن يكون الخيار المطروح أمام المصوت الشيشاني هو «هل تفضل بقاء الشيشان ضمن روسيا أم استقلالها؟»؛ جاء السؤال: «هل توافق على إقرار السلام في الشيشان؟!»، وبإعراض الهيئات الغربية عن حضور هذه اللعبة، أعلنت روسيا عن نتيجة الاستفتاء بموافقة أغلبية الشعب الشيشاني على الدستور الجديد، والذي نص على أن تبقى الشيشان ضمن الفيدرالية الروسية! وهو أمر لم يُقدّم إلا تكريساً لرغبة موسكو في بقاء الشيشان تحت سيطرتها؛ حيث نص مشروع الدستور على «الاتحاد بين روسيا والشيشان، وأحقية رئيس روسيا في إبطال سلطات الرئيس الشيشاني».

وقد جرى التصويت على مشروع الدستور في غياب مراقبين من الدول الأوروبية.

ثانياً: العفو:

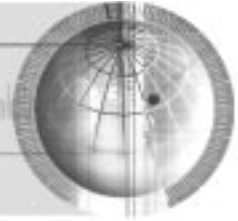
قامت روسيا بطرح مشروع قانون على «مجلس الدوما» للتصويت على قرار حكومي بالعفو عن المقاتلين الشيشانيين الذين يسلمون أسلحتهم؛ بشرط ألا يكونوا قد ارتكبوا جرائم قتل من قبل. وبهذا الشكل كان مشروع القرار (الذي حظي بموافقة أغلبية البرلمان في ٦/٦/٢٠٠٣م) استعراضاً سياسياً؛ بدت معه موسكو ساعية إلى التسامح، وبانية للديمقراطية. وما لم يكن ظاهراً بوضوح في مشروع العفو؛ هو العفو عن مئات الجنود الروس المدانين بارتكاب جرائم في الشيشان؛ كاغتصاب النساء وقتل المدنيين وحرق دور الأبرياء والتمثيل بجثثهم.

وبامتلاكها الأحادي لوسائل الإعلام قامت روسيا بعرض صور متلفزة لعشرات الشيشانيين وهم يسلمون أسلحتهم وتعلو وجوههم علامات الخجل «المسرحة». وبحلول الأول من أغسطس ٢٠٠٣م انتهت المهلة التي «منحتها» موسكو للمقاتلين لإلقاء أسلحتهم دون أن يخرج المقاتلون من الغابات والجبال لتسليم أنفسهم.

ثالثاً: الانتخابات:

أعلنت موسكو الخامس من أكتوبر ٢٠٠٣م يوماً لانتخاب الرئاسة الشيشانية؛ بحيث تكون هذه الانتخابات نهاية جدل الارتباط العضوي بين الجمهورية (كمنطقة أطراف) وموسكو (كمركز للاتحاد الفيدرالي). ونجح فيها «أحمد قادиров» الذي كان من بين قادة الثوار الذين حاربوا الروس في الفترة ما بين (١٩٩٤ - ١٩٩٦م)، وكان مفتياً سابقاً ولكنه غير ولاءه، ويمكن ملاحظة عدم الرضا عن «قادиров» في أوساط ضباط الجيش المتمركزين في الجمهورية الممزقة، وإذا كان العسكريون الروس غير مرتاحين لهذا الرئيس الجديد؛ فإن شعور المدنيين الشيشان ضده أقوى بمرات مضاعفة، فقد وثقت مجموعات حقوق الإنسان هناك حالات





قتل وتعذيب واختطاف نفذها رجاله هناك .

ولا شك أن السياسات السابقة في الشيشان لم تحقق هدفها؛ خاصة في ظل الإدارة العميلة برئاسة قادиров التي أخفقت في السيطرة على الأوضاع، ووجود عصابات روسية وقوى عسكرية روسية تتاجر بالنفط بطريقة غير شرعية، ولهذا فإن العديد من الشيشانيين يعتبرون الاتجاه الموالي لروسيا خائناً ومتواطئاً مع الفساد .

والذي يبدو من استعراض السياسات الروسية المتعلقة بالشيشان أنها لن تفرط في الشيشان بسهولة لأسباب جغرافية وسياسية واستراتيجية، وربما تساعد حرب الإرهاب الأمريكية على تشديد موقفها؛ بعدما بدأت واشنطن تحول نظرها بشأن قضية الشيشان، وتعتبرها مجرد قضية انفصالية .

فصائل المجاهدين في الشيشان:

اتخذت القضية الشيشانية في إحدى صورها البعد القومي؛ رافعة شعار تحرير العرق الشيشاني من الهيمنة الروسية بجانب راية الإسلام التي لازمت القضية منذ مئات السنين . . ولكن القضية تأسلمت بشكل طغى على كل الاعتبارات الأخرى في مرحلة لاحقة، والعوامل التي أدت إلى هذا التحول هي:

- شجاعة شباب الحركة الإسلامية وبسالتهم في القتال؛ مما جعل القيادة الشيشانية تعتمد عليهم وتقدرهم بعدما ثبت إخلاصهم وتفانيهم .

- الدور الدعوي للمساجد واللجان الخيرية الإسلامية .

- مشاركة بعض الشيشانيين الذين كانت لهم سابقة في القضية الأفغانية وانتقلوا إلى الشيشان بخلفيتهم الشرعية وأدبيات الجهاد الأفغاني ومصطلحاته .

- مشاركة المجاهدين العرب الذين أعطوا القضية بُعداً آخر؛ إضافة إلى خلفياتهم الشرعية ودورهم الدعوي بجانب الدور العسكري، وعلى رأس هؤلاء القائد الميداني - الذي قتل غدرًا - خطاب .

وتشكلت الخريطة السياسية أثناء الحرب الأولى في الشيشان (١٩٩٤م - ١٩٩٦م) من عدة أحزاب أو مجموعات سياسية على رأسها:

١ - الحزب الوطني الديمقراطي ذو الصفة القومية، والذي كان يدعو إلى تحرير القومية الشيشانية من الاحتلال الروسي، ومؤسس هذا الحزب جوهر دودايف أول رئيس للشيشان .

٢ - الحزب الشيوعي وهو امتداد للحزب الشيوعي السوفييتي في العهد السابق، وكان يضم عدداً من الأقطاب الشيوعية الشيشانية .

٣ - حزب النهضة الإسلامي، وهو حزب أعلن عن تأسيسه عام ١٩٩٠م قبل انهيار الاتحاد السوفييتي، وانتخب الدكتور أحمد القاضي (من داغستان) رئيساً له، وكان يضم المسلمين في جميع جمهوريات الاتحاد



السوفييتي، وقد أعلن عن حل هذا الحزب فيما بعد (بعد انهيار الاتحاد السوفييتي)، وتفكك إلى عدة أحزاب حسب وجودها الجغرافي في الجمهوريات المستقلة، ويذكر أن هذا الحزب قريب في فكره من فكر الإخوان المسلمين.

٤ - بالإضافة إلى تجمعات حول أشخاص ذوي نفوذ مالي أو تجاري.

وكانت هناك مجموعات تعارض استقلال الشيشان مدعومة من قبل روسيا.

ولكن مجريات الأحداث في فترة الحرب أدت إلى أسلمة هذه الحرب لتتحول إلى إسلامية (١٠٠٪)، واختفت الأصوات القومية والشيوعية، وساد شعار الجهاد وأصبح هو الشعار الوحيد لهذه الحرب.

وهكذا تحولت الحرب إلى حرب جهادية إسلامية، وأصبح مطلب تطبيق الشريعة بعد الاستقلال مطلباً لا يقبل الجدل عند جميع فئات الشعب الشيشاني، وأعيد تشكيل الخريطة السياسية الشيشانية، ولكن هذه المرة حسب آلية تطبيق الشريعة بعد أن اتفق الجميع على الإسلام، وأصبحت كيفية تطبيق الشريعة هي العامل الأساسي لتقسيم الأطراف السياسية هناك.

وأصبحت الخريطة السياسية كالتالي:

- (الجماعة السلفية) التي تدعو لإعلان الدولة الإسلامية وترفض الهدنة مع روسيا، ونقل الحرب إلى دول الجوار لتوحيد شمال القوقاز، وتضم جماعات بعض المجاهدين العرب أبرزهم القائد الراحل «خطاب»، وتجمع «شامل باسيف».

وهذا التيار يزاوج بين الفكرة السلفية الداعية إلى تنقية المجتمع الإسلامي من الشوائب وإنشاء الدولة الإسلامية على غرار العهد الأول للإسلام، وبين الفكرة الجهادية الداعية إلى أسلوب العنف لتحقيق الدولة الإسلامية.

- مجموعة (حزب النهضة) السابق تدعو إلى إصلاح الوضع الاقتصادي، والتدرج في تطبيق الشريعة ووحدة الصف، وتؤيد مسخادوف في سياسته.

- مجموعة الحكومة وهي مجموعة الرئيس مسخادوف الذي اشتهر بعد نجاحه في عملية مستشفى «بوديونوفسك»، وتدعو إلى التدرج في تطبيق الشريعة؛ مع الحفاظ على خصوصية الشعب الشيشاني وتقاليده.

- الطرق الصوفية، وعلى رأسها المفتي، والإدارة الدينية في البلاد، ومن زعمائها «الشيخ منصور»، والإمام «شامل»، توحدت تحت راية واحدة باستثناء المفتي «أحمد قادиров» الموالي للروس، وقام «مسخادوف» بعزله.

كان قادиров مفتياً لجمهورية الشيشان، وبمجرد موالاته للروس كرهه الشعب الشيشاني واستبعده تماماً من حساباته.





العلاقة بين فصائل المقاومة وحقيقة وجود خلافات بينها :

والم تأمل لحال أهم فصيلين فاعلين في المقاومة الشيشانية (مسخادوف - باسييف)؛ يكتشف بسهولة وجود بعض الخلافات بين القائدين متعلقة ببعض العمليات النوعية التي يتبناها (باسييف) ويرفضها مسخادوف؛ مثل عمليات احتجاز الرهائن والتفجيرات التي تشمل الداخل الروسي؛ فضلاً عن اختلاف النظرة لصورة الاستقلال الذي يشترك الاثنان على تأكيد أنه خيار استراتيجي، إلا أن مسخادوف طالب أكثر من مرة بالتفاوض مع الكرملين دون شروط مسبقة. وبالفعل لا يطالب مسخادوف باستقلال الشيشان على الفور عن روسيا، بل يتبع سياسة مفادها الوصول إلى هذا الاستقلال تدريجياً وعبر فترة زمنية طويلة نسبياً لا يجري خلالها فك الارتباط نهائياً مع موسكو. وهذا الموقف يختلف تماماً عن موقف شامل باسييف الذي يرفض التفاوض مع روسيا ويطالب بالاستقلال الفوري.

وعلى الرغم من اختلافات المجاهدين في الكثير من الأمور، فإنهم ارتفعوا إلى مستوى التحديات التي واجهتهم، وأعلن قادة المجاهدين الشيشان في ضربة قوية للروس ونقله نوعية في التنسيق بين فصائل المقاومة الشيشانية في العمليات العسكرية ضد القوات الروسية في أنحاء البلاد؛ أعلنوا أواخر عام ٢٠٠٢م توحدهم تحت قيادة (أصلان مسخادوف) رئيساً للدولة الشيشانية ذات التوجه الإسلامي التي يسعون لإقامتها والقائد (شامل باسييف) نائباً له.

الاستراتيجية العسكرية للمقاومة الشيشانية ومدى نجاحها أو إخفاقها:

اللافت للنظر أن مجموعات المقاومة الشيشانية المسلحة أدخلت على عملها - بسبب طبيعة الحرب والتفاوت الضخم بين طرفي النزاع - بعض التحول النوعي الذي يتجسد في تنفيذ العديد من العمليات ليس فقط داخل حدود جمهورية الشيشان بل وخارجها. وقد وصلت هذه العمليات إلى قلب روسيا نفسها، وهو الأمر الذي سبب حرجاً وإرباكاً شديدين للقيادتين الأمنية والسياسية الروسية؛ وخاصة في ظل حديثهما عن انتهاء الحرب والسيطرة على جمهورية الشيشان.

وتمثلت أهم ملامح السياسة العسكرية للمقاومة الشيشانية فيما يأتي:

١ - حروب العصابات: الفارق العسكري الضخم بين الجيش الروسي والمقاومة الشيشانية حتم على المقاتلين الشيشان عدم الدخول في حرب نظامية ضد جيش بهذا العدد والعدة؛ لذا فالخيار هو اللجوء إلى حرب عصابات طويلة، واللجوء إلى الجبال وإحكام التحصينات حول جروزني؛ بهدف الوصول إلى نتيجة واحدة هي: إحداث خسائر جسيمة في القوات الروسية، واستنزاف الآلة العسكرية، وقد ساعد على نجاح هذا الأسلوب معرفة مجموعات المقاومة بالتركيبة الجغرافية للبلاد معرفة جيدة؛ فضلاً عن أن هذا الأسلوب كان قد استخدمه أصلان مسخادوف حينما كان رئيس أركان حرب الجيش الشيشاني في الحرب الأولى ١٩٩٤م وأثبت نجاحه.



ورغم اختلال موازين القوى بشكل كامل بما يخدم مصلحة الروس ؛ فإن القيادة الروسية اضطرت للإقرار بضرارة المقاومة ، وقدرة المجاهدين الشيشان على إدارة دفة القتال بحذق ومهارة كبيرين . واعتترف الجنرال «فاليري مانيلوف» القائد الأول لرئيس هيئة أركان القوات المسلحة في بداية الحرب في تصريحات صحفية بإخفاق القوات الروسية في إحكام قبضتها على جروزني ، وأضاف «مانيلوف» أن المجاهدين الشيشان طوروا تقنيات وأساليب القتال ، واستفادوا من خبرات تلك الحرب الأولى بين عامي ١٩٩٤م - ١٩٩٦م .

ونجحت سياسة حرب العصابات في إلحاق خسائر ضخمة اقتربت من خمسة آلاف قتيل حسب الإحصائيات الروسية ، وثلاثة أضعاف هذا الرقم حسب لجنة أمهات الجنود الروس ، وهي لجنة مستقلة غير حكومية .

نقل الحرب إلى داخل روسيا : حيث نقلت المقاومة الشيشانية جزءاً من عملياتها العسكرية إلى الداخل الروسي ؛ متبعة أسلوب التفجيرات واحتجاز الرهائن ، وتبنى شامل باسايف بعض هذه العمليات وهدد بالمزيد ، وكانت المقاومة قد لجأت لهذه الطريقة في الحرب الأولى ، حيث كان باسايف قائداً للكتيبة الأبخازية في المقاومة ، وتمكنت المقاومة بسبب أساليبه القتالية في نقل المعركة إلى داخل الأرض الروسية ، ومن أهم ما قام به هو أنه تمكن في ١٣ / ٦ / ١٩٩٥م بقوة مكونة من ١٤٣ مجاهداً بخطف ١٥٠٠ رهينة بعد الاستيلاء على أحد المستشفيات في «بوديونوفسك» .

أهداف المقاومة الشيشانية من نقل الحرب إلى داخل روسيا :

وحسب ما أعلن المجاهدون الشيشان ؛ فإن الهدف من نقل جزء من عملياتهم العسكرية إلى داخل روسيا تحقيق عدة أمور ؛ أهمها :

- نقل المعركة إلى عمق الأرض الروسية لتخفيف الضغط على الشعب والمقاومة الشيشانية .

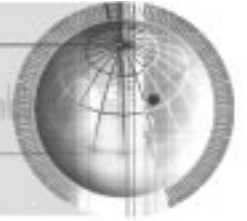
- رفع حالة التوتر الأمني داخل الأرض الروسية وإنهاء القوات الروسية .

- رفع نفقات الحرب الروسية على الشيشان .

هذه العمليات من شأنها أن توسع الفجوة القائمة بين الساسة والعسكريين الروس ، والذين ما زالوا يعيشون معركة سياسية برلمانية بين إيقاف الحرب ومواصلتها ، فتأتي هذه العملية لتدعيم رأي المعارضين لمواصلة الحرب والداعين لإيقافها بأي ثمن .

نقل الحرب لوسط الأرض الروسية سوف يدفع الشعب الروسي إلى إعادة النظر في مواصلة الحرب ، هذه العمليات سوف تتيح للشعب الروسي أن يسلط الضوء على حقيقة مجريات الحرب في الشيشان ، حيث يُضلل الشعب الروسي من بداية الأحداث ، وتُصور له انتصارات القوات الروسية في الشيشان بما لا يدع مجالاً للشك عندهم بأن الحكومة الروسية تبسط سيطرتها على الشيشان ، وفضحت هذه العمليات التقارير الحكومية التي





تزعم القضاء على المجاهدين .

وهنا قضية شديدة الحساسية في تجاوب الشعب الروسي مع قضية استقلال الشيشان ، فمن ناحية هناك ملايين الروس الذين يؤمنون بحق الشيشان في الاستقلال وضرورة انسحاب روسيا منها (بلغت نسبتهم في عديد من استطلاعات الرأي أكثر من ٥٥ ٪)؛ بيد أن وصول العمليات «الاستشهادية» إلى المسارح والشوارع وساحات الاحتفالات يسحب جزءاً مهماً من هؤلاء إلى فريق الكارهين لمسعى الاستقلال .

ولكن ألا يدري منفذو العمليات الفدائية هذه التداعيات؟ واقع الأمر أن هناك وعياً من قبل حركة المقاومة بهامشية الدور الذي يمكن أن يلعبه تعاطف المواطن الروسي مع الحق الشيشاني في الاستقلال؛ نظراً إلى عدم فاعلية المشاركة السياسية للمواطن الروسي ، وخاصة إذا مس الأمر قضايا الأمن القومي وشؤون المؤسسة العسكرية . وحتى الآن لم تفلح مظاهرة واحدة في الشارع الروسي في تغيير شيء من واقع الأمور في الشؤون الداخلية؛ فضلاً عن إنهاك المواطن الروسي اقتصادياً؛ وهو الأمر الذي يقلل فرص المشاركة في «ترف التظاهر» .

وهكذا يبدو المكسب الأول لنقل العمليات الانتقامية إلى العاصمة موسكو جذب الانتباه إلى القضية ومحاولة تغير التشويه المعلوماتي الذي تمارسه روسيا .

وفيما يرى بعض المراقبين نجاح مثل هذه العمليات في تحقيق أهدافها ، وتسليط الضوء على القضية الشيشانية؛ فقد اعتبرها بعض آخر ضربة كبيرة موجهة لإمكانية التوصل إلى تسوية للقضية؛ إذ إن الإعلام الروسي أحسن استغلال تلك العمليات ، واستغلها في تأكيد إصاق تهمة الإرهاب بالمقاتلين الشيشان ، وربطهم بمجموعات مصنفة ضمن قائمة الإرهاب الدولي وعلى رأسها تنظيم القاعدة .

ونفى مسخادوف وجود أي علاقة بين المقاتلين الشيشان وبين تنظيم القاعدة قائلاً: «لا علاقة لنا بالإرهاب الدولي . . . ونحن لا نعرف أسامة بن لادن ، وهو لا يمثل شيئاً بالنسبة لنا» .

كما نفى الزعيم الشيشاني وجود أي علاقة بين شامل باسايف وبين الإرهاب الدولي ، مضيفاً أن باسايف لم يقم بأي اتصال مع تنظيم القاعدة أو مع أسامة بن لادن ، وأضاف أن باسايف ليس له أي حساب مصرفي في الخارج ، وأنه يستخدم الأساليب نفسها التي يستخدمها العدو ضد المدنيين الشيشان ، إنه مبدأ العين بالعين ، كما أن هذه العمليات تستهدف بالدرجة الأولى المخابرات الروسية التي تدير الحرب .

ولكن مسخادوف أوضح أن هناك اختلافاً في الرأي بينه وبين باسايف قائلاً: (أرى أنه يجب شن معركة منظمة ضد روسيا باللجوء إلى دبلوماسية وتكتيك واستراتيجية عسكرية ، وإنني أدين الأساليب والعمليات التي تؤدي إلى معاناة مدنيين أبرياء . إن ل شامل باسايف أساليبه لكنه لا يرتبط بعلاقة مع الإرهاب الدولي) .

٣ - تقنية المقاومة : وفيما يخص تقنية المقاومة فقد احتل إسقاط المقاتلين لمروحيات روسية المرتبة الأولى في عام ٢٠٠٢م ، بينما احتل الهجوم الاستشهادي المرتبة الأولى في النصف الأول من عام ٢٠٠٣م ، وهو أسلوب





جديد لم يكن متبعاً من قبل ودخل إلى ساحة المقاومة بقوة منذ عملية مسرح موسكو في أكتوبر ٢٠٠٢م، ويبدو أن ثقافة المقاومة الاستشهادية الفلسطينية صارت المنهج الأكثر بروزاً على المسرح الشيشاني في العام المنصرم.

٤ - دور المرأة في المقاومة: ومن زاوية أخرى احتلت المرأة الشيشانية مكان الصدارة في مستوى عنف عمليات المقاومة عبر مسلسل متوال من العمليات الفدائية. وقد قامت المرأة بعدة عمليات مؤثرة (١٧٪ من إجمالي عمليات العام ونصف العام المنصرمين)، وركزت في الأساس على عنصر المباغته واختارت العاصمة موسكو (شاركت ٢٠ امرأة في عملية مسرح موسكو في أكتوبر ٢٠٠٠م).

وبالرغم من الانتصارات التي استطاعت المقاومة الشيشانية تحقيقها على الصعيد العسكري؛ فإن الواقع يشهد بضمور في العديد من جوانب المعركة سياسياً وإعلامياً؛ قد يكون لهيب المعارك التي دخلت عامها الخامس سبباً في إشغالهم عن تفعيلها.

وواقع الحال أن حركة المقاومة في موقف شديد الحساسية، وتقف حائرة أمام عديد من الملاحظات التي تلقي عليها بالمسؤولية، وهي لا تملك أن تلقي بسلاحها بعد هذا المشوار الطويل من الصراع. كما أنها - وإن كانت تدري مدئ شراسة الجيش الروسي في التنكيل بالشيشانيين بسبب نشاطها - تعلم في الوقت نفسه أن لغة القوة هي التي أجبرت روسيا في عامي (١٩٩٦م - ١٩٩٧م) على أن تقتنع، بعد مسلسل شيشاني من الضربات الموجعة ومعارك شوارع شديدة الجرأة، بإمكان قبول استقلال الشيشان، بل اضطر بوريس يلتسن نفسه أن يوكل مستشاريه للجلوس مع زعماء المقاومة للاتفاق على تأجيل قرار الاستقلال إلى عام ٢٠٠١م.

البعد الدولي في الصراع الشيشاني - الروسي؛

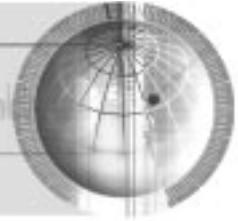
شهدت منطقة القوقاز وقزوين عدداً من العناصر الخارجية الفاعلة المؤثرة في سياسات المنطقة وتطورات الوضع على الجبهة الروسية الشيشانية، وظهرت الولايات المتحدة كأبرز هذه العناصر الفاعلة، وأتت أوروبا ممثلة في الاتحاد الأوروبي، وحلف شمال الأطلسي، ومنظمة الأمن والتعاون في أوروبا؛ كأحد العناصر المؤثرة في مرتبة تالية لأمريكا، تليها دول العالم الإسلامي.

ولقد أدركت الولايات المتحدة مبكراً الأهمية الجيوبوليتيكية للشيشان، فسعت لتعميق وجودها وتمركزها في هذه المنطقة، ولهذا فقد أيدت فكرة السوق القوقازية المشتركة من خلال ربط شمال القوقاز بجنوبه.

ومع تصاعد الصراع في منطقة جورجيا والشيشان، أرسلت الولايات المتحدة خبراء عسكريين في مكافحة الإرهاب لمساندة جورجيا، كما سعت للحد من الدور الروسي في هذه المنطقة.

ولم تتحرك الولايات المتحدة بمفردها في المنطقة، وإنما حاولت أن تخلق نوعاً من التحالف القوي من الدول ذات الصلة والمصلحة هناك، فقد أقامت شراكة في هذا الصدد مع تركيا الطامحة لدور أكبر، وأخذت الكيان الصهيوني تحت معطفها وهي تتحرك هناك.



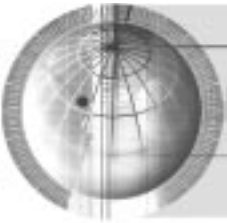


- ويمكن تلخيص الأهداف الأمريكية إزاء منطقة بحر قزوين بالنقاط الآتية :
- الحيلولة دون هيمنة روسية على النفط ؛ توفر لروسيا أموالاً طائلة تمكنها من تطوير صناعتها النفطية الخاصة .
- الحيلولة دون تحول روسيا إلى مزود رئيس مباشر للنفط إلى أوروبا .
- ضمان تدفق نفط بحر قزوين إلى العالم من خلال يد أمريكية .
- تخفيض أسعار النفط إلى حد لا يضر بمصالح الشركات الدولية .
- إيجاد التوازن بين منطقة بحر قزوين ومنطقة الخليج العربي - الفارسي ؛ بحيث لا تعود منطقة الخليج تتمتع بالمزايا الاستراتيجية الراهنة .
- فضلاً عن ذلك ؛ فإن أمريكا تخشى من تعاظم الدور الجهادي في المنطقة خاصة في الشيشان ، والذي تعده أمريكا امتداداً لأفكار تنظيم القاعدة وأسامة بن لادن ، ولهذا عملت الولايات المتحدة اتباع سياسة «تجفيف منابع» لتطويق ومحاصرة هذا التيار الجهادي .
- وحرصت الولايات المتحدة الأمريكية وهي تتحرك بالمنطقة على عدم تجاهل المصالح الروسية في منطقة القوقاز ، ولذلك فقد فضلت العمل في هذه المنطقة بالتعاون مع روسيا ما دام أن هناك مجالاً لذلك .
- واعتمدت أمريكا على منهج التدخلات الاقتصادية المليئة بالإغراءات المالية ؛ من خلال المنظمات غير الحكومية ومجموعات رجال الأعمال والمستثمرين .
- هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ؛ فإن الولايات المتحدة غضت الطرف عن الانتهاكات الدائرة في الشيشان على أيدي روسيا ، والانتهاكات الأخرى على أيدي الديكتاتوريات في أوزبكستان .
- وحرص الطرف الأمريكي على تفعيل منهج الاحتواء ، فروسيا لديهم تمثل - وفقاً لرؤية زبجنيو بيرجنيسكي مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق - في كتابه (رقعة الشطرنج الكبرى) «دولة غير مستقرة سياسياً ، وتمتلك في الوقت نفسه ترسانة نووية ، ومن المحتمل أن تشهد فوضى سياسية قد تؤدي إلى تهديد أوروبا من انتشار أسلحة الدمار الشامل» .
- لهذا يسير الاتجاه الأمريكي في التعامل مع روسيا منذ سقوط الاتحاد السوفيتي نحو الاحتواء والمساومة وليس الاستفزاز والصدام .

ومظاهر ذلك بالنسبة للقضية الشيشانية تجلت فيما يلي :

- أولاً : عندما تفجرت الحرب الشيشانية - الروسية الأولى (١٩٩٤م - ١٩٩٦م) ، والحرب الثانية (١٩٩٩م) ؛ حرصت الولايات المتحدة والغرب عموماً على الوقوف إلى جانب روسيا بالدعم الاقتصادي والسياسي ، فالبيانات الصادرة في الغرب تؤكد أنه تم تقديم ١١ ، ٥ مليارات دولار كمساعدات من الغرب لروسيا ، كما أن





مساعدات أكثر كثافة - لم يكشف النقاب عنها بعد - تم تقديمها لروسيا في الحرب الدائرة الآن .

وظل الموقف الأمريكي يضع ما ترتكبه الآلة الوحشية الروسية في الشيشان في خانة الشأن الداخلي الروسي الذي لا يجوز التدخل فيه ؛ وهكذا حرصت الإدارة الأمريكية على تشجيع روسيا ودعمها للدخول إلى المستنقع الشيشاني مرتين تحقيقاً لهدفين :

١ - كبح جماح الصحوة الإسلامية المتنامية في الجمهوريات الإسلامية المستقلة عموماً وبينها آسيا الوسطى والقوقاز ؛ وهو ما يمثل خطراً على المشروع الأمريكي الغربي .

٢ - إضعاف الاقتصاد الروسي بحرب مهلكة تؤدي لا محالة إلى حالة من الضعف العام داخل روسيا ، وهو ما يفتح - بلا شك - ثغرات واسعة للاختراق والتمركز الأمريكي في المنطقة .

ومن الملاحظ وجود توجه قوي من قبل الجانب الأمريكي تجاه عدم إثارة قضية المذابح الجماعية التي أشير إلى ارتكاب روسيا لها بحق الشيشان ، والتي كانت تمثل معركة سياسية حامية في أواخر فترة حكم يلتسن .

فقد دأبت الحكومة الأمريكية وقتها على « تنبيه » روسيا إلى خطورة ما تقوم به في القوقاز ؛ في وقت كانت فيه القوات الأمريكية وقوات الناتو تنجز مهمتها في البلقان ، إلا أنه خلال فترة حكم الرئيس بوتين وتزامن ذلك مع الحرب الأمريكية على « الإرهاب الدولي » بدا وكأن هناك اتفاقاً غير معلن على عدم إثارة قضايا الأقليات المسلمة في الجنوب الروسي .

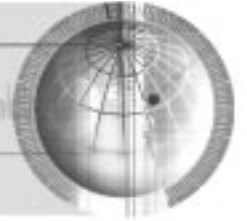
أوروبا والقضية الشيشانية:

يبدو أن الغرب يروقه انشغال روسيا بأزمة داخلية ؛ إضافة إلى معضلة بناء دولة قوية خالية من الفساد ؛ وهو ما يصرفها - ولو إلى حين - عن المطالبة بدور محوري في القارة الأوروبية ، كما أن تلك الأزمة تصب في منع تحالف محتمل بين روسيا والعالم الإسلامي ، هذا التحالف الذي يمكن أن يقوي روسيا ويفقد الغرب مكتسباته ، ولهذا كان يجب أن يجعلوا من روسيا العدو الأول للعالم الإسلامي (أفغانستان ، طاجيكستان ، البوسنة ، الشيشان) ، ثم يدفعونها إلى حرب مع العالم الإسلامي ليتدخل جنودهم بمهمة « حفظ السلام » في مناطق مختلفة من العالم . . .) ؛ فضلاً عن رضا الولايات المتحدة بهذا الانشغال عن المطالبة بإعادة تشكيل النظام العالمي أحادي القطب .

ومن الثابت من الموقف الغربي أن أوروبا وقفت إلى جوار روسيا في صراعها ضد الشيشان - وما زالت - ، فقد عدلت منظمة الأمن والتعاون الأوروبي في مارس ١٩٩٩ م اتفاقيتها المبرمة عام ١٩٩٠ م ، والتي شاركت روسيا في التوقيع عليها - وهي الاتفاقية التي قضت بالحد من تعداد القوات الروسية وعتادها في القوقاز - ، وجاء التعديل مستجيباً للمطالب الروسية بحشد المزيد من ترسانتها الحديثة ورفع عدد قواتها .

وتتفق منظمة الأمن والتعاون الأوروبي - والتي تضم تقريباً ٥٥ دولة - بشكل كبير جداً مع وجهة النظر الأمريكية وتصورها للمنطقة ، فهي كذلك لا تؤيد استقلال الشيشان وفي الوقت نفسه تعارض ظاهرياً عن





طريق التنديدات التي تصدر من آن لآخر الصورة أو الطريقة التي تعمل بها موسكو لحل الأزمة .

وبنت الدول الغربية مواقفها على أساس أن غزو الشيشان هو شأن روسي داخلي .

ولا ننسى تصريحات سابقة للسكرتير العام لحلف شمال الأطلسي «جورج روبرتسون» في حديثه لمجلة (در شبيغل) الألمانية ، فقد رفض تشبيه القتل والدمار الذي تقوم به القوات الروسية في الشيشان بالممارسات التي قام بها النظام الصربي في كوسوفا؛ على الرغم من أن ما يحدث في الشيشان يفوق ما حدث في كوسوفا . وهو في المقابل يتهم الشيشان الذين يصدون الهجوم الروسي على بلدهم بأنهم إرهابيون .

وعندما طلبت إدارة حكومة بوش المساعدة من موسكو - عقب الهجمات على مركز التجارة العالمي -؛ أجاب الروس قائلين : أنهم ما زالوا يعانون من الإرهاب . وأوضحوا الأمر أنهم في الحقيقة يقاومون الإرهابيين منذ سنوات عدة ، وأنه يسرهم أن يقدموا دعمهم لأمريكا في حربها الجديدة ما دامت أمريكا تدعم روسيا في حربها ضد عدوها المعهود في الشيشان . وقد أوضح «إيفيجيني كوزوكين» مدير معهد الكرملين للدراسات الاستراتيجية بأن «الحرب على الإرهاب كانت من ضمن الأولويات التي توليها روسيا منذ سنوات . لقد شهدت اليوم الولايات المتحدة ما واجهناه من قبل وربما أنهم يتفهموننا الآن بصورة أفضل» .

وبالفعل تفهمت أمريكا وحلفاؤها من «الناتو» موقف روسيا إزاء الشيشان بشكل أفضل منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر .

الموقف الصهيوني من القضية الشيشانية:

من المعروف أن العصر الذهبي للنفوذ الصهيوني في روسيا قد بدأ منذ وصول يلتسن إلى قمة السلطة في روسيا ، ومن حوله مجموعة من اليهود مثل : أناتولي تشوبايس - المسؤول عن التخصيص ، ويفجيني بريماكوف - وزير الخارجية ، وألكسندر ليفشتس - وزير المالية ، وسيرجي باستر جيميكس - الناطق الصحفي باسم يلتسن ، وباكوف أورسون - وزير الاقتصاد ، وفلاديمير ريسين ، وألكسندر توخين ، والفرد كوخ ، وليف روفلين ، ويوري باتورين ، وغيرهم كثير .

ومن أهم هؤلاء على الإطلاق : أناتولي تشوبايس الذي تؤكد المعارضة الروسية أنه باع روسيا لصندوق النقد الدولي ، وأنه على علاقات متينة بالmafia الإسرائيلية . ولم يفت الكيان الصهيوني أن يسخر حالة السيولة والصراعات التي تمر بها المنطقة لمصلحته ، واستطاع أن ينفذ إلى القوقاز تحت عباءة الولايات المتحدة ، فالكيان الصهيوني يلعب دور ناقل التكنولوجيا والمتعاون في مجالات تطوير الاقتصاد والزراعة وبناء القوات العسكرية والشرطة ، وتقديم الخبرات في مجال النظرة السياسية لمستقبل هذه المنطقة . وقد يتلائم المخطط الغربي والصهيوني في صنع حزام مستمر ومحكم يطوق الصحوة الإسلامية في عقر دارها ، ويعزلها عن الأجزاء الأخرى من العالم الإسلامي . وتحاول «إسرائيل» عن طريق النشاط الاستخباري دعم موسكو في التعقب والقضاء على من تصنفهم كإرهابيين شيشانيين ، ففي عام ٢٠٠٠م زار وزير الداخلية الروسي وقتها فلاديمير





روشايلو «إسرائيل»، وفي اليوم التالي نقلت القناة الروسية الأولى (R.T. O) حديثاً مباشراً مع روشايلو من تل أبيب الذي تحدث عن أهمية زيارته لإسرائيل، وإمكانية القيام بعمليات مشتركة بين الاستخبارات الروسية والموساد الإسرائيلي لمكافحة الإرهاب، والاستفادة من «الخبرة الإسرائيلية الطويلة» في هذا المجال، وإنشاء بنك للمعلومات حول الحركات والجماعات التي أسماها الوزير الروسي بالإرهابية ومواقعها ومصادر تمويلها، وتبادل المعلومات والخبرات بدون تحفظ. وتعددت بعدها اللقاءات الأمنية والاستخبارية بين مسؤولين روس وصهاينة، ومن ناحية أخرى تستقبل المستشفيات الإسرائيلية بين الفينة والأخرى عشرات الجرحى من الجنود الروس الذين يصابون في المعارك الدائرة في الشيشان. ولو صح ما أعلنه المقاتلون الشيشان من إلقاء القبض على بعض العناصر الإسرائيلية في مهام تجسس؛ لوضح لنا مدى الدور الذي تسعى تل أبيب للعبه في تلك المنطقة المتأزمة للقضاء على الصحوة الإسلامية.

العالم الإسلامي والقضية الشيشانية:

أما عن دور دول العالم الإسلامي وتعاطيها مع القضية الشيشانية؛ فكما يبدو لا يوجد أي تأييد على المستوى الرسمي لانفصال الشيشان عن روسيا، بل إن هناك تعمداً واضحاً لإهمال القضية بحجة أن دعمهم للشيشان سوف يؤدي إلى تكرار نموذج أفغانستان أخرى؛ بكل ما يحمله ذلك النموذج من سلبيات وإيجابيات.

ولم يتجاوز دور بعض الدول الإسلامية المتعاطفة مع القضية الشيشانية التنديد بالأسلوب الدموي الذي تعالج به روسيا المشكلة، مع الدعوة إلى حل سلمي يوقف نزيف الدم الشيشاني مع التأكيد على أن القضية لا بد أن تحل من منظور المحافظة على وحدة الأراضي الروسية.

ومن اللافت للنظر أن غزو الشيشان حدث في أثناء انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي بالدار البيضاء، ولم تصدر عن المؤتمر إشارة واحدة لما حدث، فلم يتعد الموقف الإسلامي والعربي بيانات الإدانة والشجب، ورفض ضرب الأهداف المدنية، واللجوء إلى مائدة المفاوضات لحسم الخلاف.

كما أن التنويع في العلاقات الخارجية وعدم الاعتماد على دولة بعينها، وعدم الدوران حول القطب الأمريكي في السنوات الأخيرة؛ دفع العديد من الدول الإسلامية والعربية على وجه أخص إلى إعادة النظر في علاقتها مع روسيا؛ على نحو يشير إلى مزيد من الاهتمام والتقارب على حساب القضية الشيشانية.

أما على الصعيد الاقتصادي؛ فإن للعديد من الدول الإسلامية اهتمامات ومصالح مشتركة مع الجانب الروسي، والذي نجح في تسخير البعد الاقتصادي والمصالح المشتركة لخدمة موقفه في النزاع الشيشاني وتحييد بعض الدول التي كانت تعد على المستوى الرسمي والشعبي من أشد المناصرين للقضية الروسية. ويأتي الموقف الإيراني من الأزمة الشيشانية كنموذج يكشف تأثير العلاقات الاقتصادية والمصالح المشتركة في نظرة وتعاطي بعض الدول الإسلامية مع القضية الشيشانية، حيث أعلن وزير الخارجية الإيراني كمال خرازي أن «إيران لا تندد بما تفعله القوات الحكومية الروسية في جمهورية الشيشان، وترى ضرورة البحث عن حل سياسي لا يهدد وحدة الأراضي الروسية».



وبالرغم من أن الدور المؤسسي الإسلامي بالنسبة لقضية الشيشان كان في بعض أبعاده أكثر تفاعلاً من الدور الرسمي؛ فإنه لم يتجاوز المساعدات الإغاثية وقرارات التنديد، فضلاً عن تقلص هذا الدور بصورة ملحوظة بعد إطلاق أمريكا حربها على الإرهاب.

ويبدو أن العالم الإسلامي المثقل بهوموم؛ لن تتعدى مشاركته في القضية في ظل الأوضاع الدولية المتأزمة، والحرب التي تستهدف المسلمين: الإعراب عن القلق، والمطالبة بتسوية سلمية، أو مبادرات فردية تتمثل في بعض المتطوعين.

خلاصة الموقف الدولي بشكل عام:

- أ - عدم تأييد انفصال الشيشان عن روسيا، وتأكيد حل المشكلة داخل إطار وحدة الأرض الروسية.
- ب - الإعلان عن رفض الخيار العسكري الروسي لحل الأزمة.
- ج - الاكتفاء بمطالبة روسيا بمراعاة حقوق الإنسان والتأكيد على ذلك.
- هـ - البحث عن تسوية سياسية للصراع.
- و - تأكيد حق روسيا في مكافحة الإرهاب.

يمكننا القول إن النقاط السالفة الذكر تلخص إجمالاً الموقف الدولي بشكل عام سواء الولايات المتحدة أو منظمة الأمن والتعاون الأوروبي أو دول العالم الإسلامي؛ ومن اللافت للنظر غياب دور الأمم المتحدة بشكل واضح، ويبدو أن الصمت الدولي سيظل هو استجابة العالم تجاه المأساة، ولن يمنع هذا من أن يخرج تقرير كل فترة لمنظمة من منظمات حقوق الإنسان عن انتهاكات القوات الحكومية ذراً للرماد في العيون.

العوامل المحددة التي تتحكم في مستقبل الصراع؛

تتحكم ثلاثة أبعاد رئيسية في مستقبل الصراع الروسي الشيشاني، يمكن أن نوجز عناصرها فيما يلي:

١ - المؤثرات الشيشانية.

٢ - المؤثرات الروسية.

٣ - المؤثرات الدولية.

أولاً: المؤثرات الشيشانية:

فأساسها العقدي يعتمد على قدرة الباعث الإسلامي وقوته في هذه المواجهة، ولا شك أن الشيشانيين يعلمون أن المحور الحقيقي لهذه الحرب هو المحور العقدي، فإذا أخلص الشيشانيون جهادهم لله - تعالى - وجعلوا قتالهم في سبيله وإعلاء كلمته؛ فإن الله - تعالى - ناصرهم لا محالة؛ فهو - سبحانه - القائل: ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].



مدى قدرة المقاومة على الاستمرار وتطور أدائها بشكل يصعب معه القضاء عليها، ويبدو أهمية هذا العنصر في كونه العنصر المحوري الذي ارتبطت به الصراعات السابقة، وخاصة تسوية الصراع الأخير.

مدى قدرة المقاومة على التحرك سياسياً وإعلامياً لكسب العالم الإسلامي؛ انطلاقاً من عمل إعلامي سياسي مدعوم بالوضع المساوي وانتهاك حقوق الإنسان وحق تقرير المصير.

مدى قدرة المقاومة على الاحتفاظ بالدعم الشعبي الذي حققه على مدار الصراع الحالي، فإنه لو لم يكن الشعب الشيشاني صامداً وقوياً لم يستطع المجاهدون المواصلة ولو أسبوعاً واحداً. ولذا فإن الدعم الشعب للمجاهدين جعل الروس يعتقدون بكل وحشية على المدنيين العزل، بل وعلى النساء والشيوخ والأطفال.

ولا يمكن أن نغفل سمات الشخصية الشيشانية في معرض الحديث عن العوامل المحددة لمستقبل الصراع؛ فقد اشتهر الشيشانيون بصلافة البأس في القتال، والقتال حتى الرمق الأخير، وقد رفعوا هذا الشعار في حرب ١٩٩٤م وفي الحرب الراهنة، والشيشاني يفضل الموت على الحياة، ففي حرب ١٩٩٤م حاصر الروس إحدى القرى وأشعلوا النيران ببيوتها، وضيقوا الخناق على مجموعة من المقاتلين، وبينما المكان يشتعل ناراً ويستحيل إلى دخان أسود كثيف؛ خرج مقاتل شيشاني متفحم يرفع منديلاً أبيض؛ فلما اقترب من الجندي الروسي قال له وهو يلفظ الرمق الأخير: «إن كان لي رجاء قبل الموت فهو أن تبلغ أهلي أننا متنا شجعاناً ولم نستسلم... ثم مات».

ثانياً: المؤثرات الروسية:

١ - الصراع داخل المؤسسة العسكرية:

إن هذا الصراع محتدم بين مختلف القيادات المشاركة في الحرب الشيشانية؛ حيث إن المخططين العسكريين للعملية الشيشانية واقعون في ارتباك شديد بسبب عدم قدرة القوات في الجبهات الأمامية على تنفيذ المهام الموكولة إليهم؛ مما أحدث أزمة ثقة بين القيادات المخططة والقيادات المنفذة. ولا شك أن الخلافات داخل المؤسسة العسكرية الروسية تصب في النهاية في مصلحة المجاهدين الشيشان.

٢ - الصراع بين المؤسستين السياسية والعسكرية:

إن هذا الصراع بدأ في الظهور على سطح الأحداث؛ حيث إن المؤسسة السياسية قد لاحظت أن الحسم في الشيشان لمصلحة روسيا ليس مؤكداً؛ في حين أن المؤسسة العسكرية تصر على المضي قدماً في حرب الشيشان إلى النهاية، والنهاية عندهم هي إعادة احتلال الشيشان والقضاء على قياداتها السياسية والعسكرية، والإبادة الجماعية لشعبها المسلم.

٣ - البعد النفسي:

إن معنويات العسكريين الروس بدأت في التدهور بسبب شراسة المواجهة التي يلاقونها من المجاهدين



الشيشان؛ مما عرقل تماماً الخطط الموضوعة لاحتلال تلك البلاد، ووجود بعض تشكيلات الجيش الروسي من المتطوعين غير القادرين على الصمود والقتال لفترة طويلة.

لقد اعتقدت القيادة الروسية بمؤسستها السياسية والعسكرية أن حسم موضوع الشيشان سيتم سريعاً جداً ولن يستغرق إلا بضعة أسابيع في أبعد التقديرات، ولكن جاءت الوقائع على خلاف ذلك، وهذا الذي حدا بالقيادة العسكرية إلى تكثيف قصفها بالطائرات وراجمات الصواريخ وقذائف المدفعية، واستخدام أشد الأسلحة فتكاً، مع توجيه كل ذلك إلى البنية التحتية الشيشانية وإلى جميع المدنيين العزل من السلاح؛ بغية ممارسة أشد أنواع الضغط على المجاهدين لكي يلقوا سلاحهم حفاظاً على استبقاء أهلهم وممتلكاتهم. إلا أن جميع هذه التقديرات الروسية ذهبت أدراج الرياح، وأطاح بها صمود المجاهدين الشيشان وبسالتهم في القتال واستمرارهم في قتالهم الشديد من المرتفعات والجبال، واستخدامهم أساليب جديدة في الحرب أرهقت الروس.

٤ - البعد الاقتصادي:

إن روسيا منذ انهيار الاتحاد السوفيتي وهي تعاني من أزمات اقتصادية شديدة؛ مما أدى إلى إيقاف العمل في عدد من المشاريع الإنمائية، وتأخر الحكومة عن دفع الرواتب، سواء للموظفين المدنيين أو المجندين العسكريين.

ويصعب على الحكومة الروسية الاستمرار في تمويل تكاليف الحرب على الشيشان، فهي إما أن توقف هجومها على الشيشان، وإما أن تنزلق اقتصادياً إلى قعر الهاوية؛ مما سيعزز دور المافيا وأعوانها

٥ - البعد الاجتماعي:

إن الجانب الاجتماعي سيتأثر بسبب تزايد أعداد القتلى الروس في الجبهات القتالية، وستفد أسراب التوابيت للقتلى الروس من جبهات القتال إلى جميع المدن الروسية بدون استثناء، وهو الأمر الذي قد تشكل آثاره قنبلة مؤقتة.

وإن كان الداخل الروسي يبدو ذا تأثير حالي ضعيف على مجريات الأحداث بالنسبة لما يجري على أرض الشيشان؛ إلا أن ذلك الموقف قد يأخذ مستقبلاً حيزاً أكبر في مجريات الأحداث، يصب في مصلحة الشيشان، وذلك في حال إخفاق روسيا في وقف نزيف الدم الروسي؛ فضلاً عن استنزاف الحرب للمكتسبات التي بدأ الاقتصاد الروسي يحققها الآونة الأخيرة، وهو الأمر الذي قد يعمل على هياج الرأي العام؛ في وقت بات فيه القيادة الروسية عاجزة عن إخفاء الصورة المأساوية التي تضخمت ملامحها في الشيشان.

ثالثاً: المؤثرات الدولية:

الأوضاع الدولية تصب الآن في مصلحة روسيا، حيث الصمت الدولي على أنباء المذابح التي يقترفها



الروس ضد الشيشان جماعياً؛ بالرغم من أنها قد ملأت الآفاق، وهذا قد دفع دول العالم أجمعين نحو زاوية حرجة، ومع تتالي الأيام والأسابيع أصبح من المنتظر أن يقول العالم شيئاً ما بشأن تلك المذابح الهمجية. واشترأت أعناق دول العالم الثالث نحو أمريكا وأوروبا تنتظر منهم موقفاً كي يقوموا هم بدورهم بصياغة مواقفهم على أساس ذلك الموقف الغربي.

ولا يتوقع أن يكون هناك موقف حاسم في إطار العامل الدولي، ولكن الدفة في هذا العامل من حيث العموم تميل كثيراً للجانب الروسي؛ من حيث التقاء المصالح في القضاء على الصحوة الإسلامية الجهادية بالمنطقة.

ويظل الموقف الدولي، وخاصة الحرب الأمريكية على الإرهاب والصور التي تأخذها، وتعلقها بالإدارة الأمريكية وطريقة إدارتها؛ أموراً قد تتدخل ولو بصورة مؤقتة لترجيح كفة الجانب الروسي.

إشكالية الحسم واحتمالات التسوية:

إنه من الصعوبة بمكان الحديث عن مستقبل التسوية السياسية في جمهورية الشيشان المسلمة؛ في ظل بقاء الأمور خاضعة لمتغيرات عديدة عسكرية واقتصادية وسياسية واستراتيجية، والتي تحدد في محصلتها شكل التسوية النهائية للموقف؛ إلا أن هناك شواهد معينة من الطرف الروسي وتحركات القوى داخل الشيشان؛ فضلاً عن المؤثرات الدولية والتي قد تفيدنا في وضع ملامح محتملة لخيارات أو بدائل التسوية.

وسوف يتم محاولة إلقاء الضوء على احتمالات التسوية المستقبلية، وما قد تؤول إليه الأوضاع في الشيشان؛ من خلال عرضنا للعناصر الآتية:

أولاً: إشكالية الحسم: والتي نستطيع أن نبرزها بجلاء من خلال عدة عناصر أهمها:

- تشعب العوامل المؤثرة في الصراع واختلافها قوة وضعفاً.

- تقاطع كثير من تلك العوامل وتجذرهما وتداخلهما بطريقة يصعب معها الجمع بينها.

- اتساع حجم البعد الديني في الصراع.

- رفض الطرف الروسي لمسألة الاستقلال واعتبار المشكلة شأنًا داخلياً؛ فضلاً عن أن القبول بحل دائم

بديل للاستقلال من الطرف الشيشاني أصبح مرفوضاً على المستوى السياسي والشعبي والعسكري.

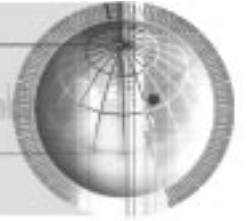
- الأسلوب الدموي الذي تستخدمه روسيا لحسم الصراع.

- المشكلة التي يواجهها الروس لدى المسلمين، خاصة في الشيشان، أن الإسلام يمثل لهم الدين والهوية

والحضارة، ولذلك لم يستطيعوا تذويبهم داخل الإمبراطورية الروسية الأرثوذكسية أو الشيوعية أو البراجماتية المتمثلة الآن.

- التغلغل الأمريكي في المنطقة (جورجيا) ومدى تأثير ذلك على المصالح الروسية؛ فضلاً عن أن أمريكا





التي باتت على مر مئتي حجر من الشيشان لم تكن لتقبل بسهولة بإقامة دولة إسلامية في منطقة تمثل مجاًلاً حيويّاً لأمريكا.

- تشابك المصالح الأمريكية الغربية والروسية في المنطقة؛ وهو الأمر الذي قد يمثل في إحدى دلالاته صعوبة التوصل لصورة يمكن معها حسم القضية.

ثانياً: إطلالة قانونية على مسألة حق الشيشانيين في تقرير المصير:

هناك اتجاهان رئيسان لتفسير العلاقة بين الشيشانيين والروس:

الاتجاه الأول: يقول بأن الشيشان جزء لا يتجزأ من الاتحاد الروسي؛ ورسخ ذلك بقاؤها لفترة طويلة، خاضعة لسيطرة القيصرية والشيوعيين. ومن حق السلطة المركزية في موسكو المحافظة على وحدة روسيا الاتحادية، والتي ورثت الاتحاد السوفيتي السابق وراثته كاملة؛ والشيشان من ضمن هذه التركة.

ولذا فقد انتقدت بعض التحليلات الموقف من مسلمي الشيشان؛ على أساس تعارضه مع مبدأ حق تقرير المصير للشعوب، وتعارضه مع حقوق الإنسان. والواقع أن هذين المبدأين يتم تطبيقهما في معظم الأحيان وفقاً لمعايير سياسية تخضع لمصالح القوى المهيمنة على التوازن الدولي في كل حقبة، فحينما نودي بهذا المبدأ كان الغرض منه بالأساس إعطاء الحرية للأقليات الدينية المسيحية ضد الدولة العثمانية، وفي مرحلة أقول المد الاستعماري البريطاني والفرنسي وجد هذا المبدأ تشجيعاً من القوة الأمريكية الصاعدة حينئذ من أجل تقويض الإمبراطوريات الاستعمارية والحلول محلها بصيغة تلاءم العصر. ولما حدثت المواجهة بين المعسكرين الشيوعي والرأسمالي كان ينظر لهذين المبدأين على أنهما من دعائم الحرب الباردة وسقوط الشمولية في قطبها الرئيسي - الاتحاد السوفيتي -، وميلاد توازن دولي جديد قائم على توازن المصالح والاعتماد المتبادل؛ مثل ميلاد لحقبة جديدة أعطت الشرعية الدولية لنفسها فيها الحق في تفسير المبادئ والحقوق وفقاً لمعايير تخضع لإرادة القوى الكبرى.

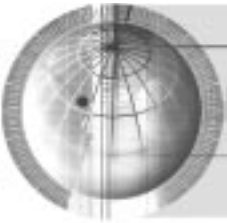
الاتجاه الثاني: يقول بحق تقرير المصير لشعب الشيشان؛ ويرى أنهم يختلفون عن بقية شعوب الاتحاد الروسي اختلافاً كلياً؛ في الدين، والعرق، واللغة، والثقافة، والتاريخ. وهم لم يكونوا راضين عن وجودهم ضمن الاتحاد الروسي في العهدين (القيصري، والشيوعي)؛ بدليل ثوراتهم العديدة ضد روسيا.

وهناك عدد من المؤشرات التي يمكننا من خلالها الحكم على مدى مشروعية مطالبة جمهورية الشيشان بالسيادة والاستقلال:

١ - التماثل الفعلي والقانوني بين الشيشان وغيرها من الجمهوريات السوفيتية الاتحادية التي أعلنت استقلالها واعترفت الجماعة الدولية بها.

٢ - عدم الاحتجاج بمشروعية التكامل الإقليمي لروسيا الفيدرالية في تأسيس مشروعية استقلال الشيشان، لاختلاف الموضوعين وعدم وجود ارتباط بينهما.





إذ إنه في ظل قواعد القانون الدولي؛ فإن للدول وحدها الحق في التمسك بفكرة التكامل والسلامة الإقليمية، وهو حق لا تتمتع به الوحدات الأدنى من مستوى الدولة، وأنه بعد تكوين الاتحاد السوفييتي لم تصبح روسيا سوى جمهورية اتحادية تابعة لا تمتلك مظاهر الدولة ولا خصائصها ولا حقوقها.

ومن ثم فإن إنشاء وضع دولي للشيشان لا يمكن أن يعتبر متناقضاً للتكامل الإقليمي لروسيا الفيدرالية؛ لأن هذا حق لا تملكه بدهاة.. فضلاً عن أن الشيشان كانت جزءاً من روسيا بموجب الفتح والاحتلال فحسب، فلم تنضم طواعية إلى روسيا، ولم تقبل في يوم من الأيام استمرار هذا الوضع الاستعماري.

٣- مدى تعرض شعب الشيشان للانتهاك المنظم والمستمر لحقوقه وحرياته الأساسية، والتي قد تصل إلى درجة الإبادة العرقية.

وكان أبرزها: النفي والتهجير الجماعي للشعوب من أقاليمها المرتبطة بها اثنيًا وتاريخياً؛ خاصة أثناء الحرب العالمية الثانية بدعوى تعاونهم مع الألمان.

٤- الاتفاقيات الدولية المعقودة ما بين جمهوريتي الشيشان وروسيا الفيدرالية، والتي تنطوي على تحديد وضع الشيشان بنهاية عام ٢٠٠١م، على أساس من حق تقرير المصير والقواعد والمبادئ المعترف بها عالمياً للقانون الدولي.

ومن خلال هذه النقاط سألقة الذكر؛ يتبين مدى أحقية الشيشان في المطالبة بحق تقرير المصير؛ استناداً للقانون الدولي، وقياساً على حالات شبيهة تعامل معها العالم الغربي بطريقة مختلفة.

وبذا يكون إعلان الشعب الشيشاني للاستقلال أمراً مشروعاً نابعاً من صلب هذا الحق، وهو ناتج عن حق لا يمكن تحويله أو تعديله.

إن رغبة الشعوب في تقرير مصيرها بحرية كاملة هو حق مشروع قد جرى الاعتراف به بوضوح في المعاهدات الدولية التي بدأت بالرواج منذ بدايات القرن العشرين، ولاقت قبولاً واسعاً مثل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ومعاهدة باريس وتقرير هلسنكي النهائي.

وهكذا؛ فإننا نجد القانون الدولي يتلّون، ويكيل بمكيالين. فيجعل قضية جمهوريات البلطيق الثلاثة: (أستونيا ولاتفيا وليتوانيا) قضية دولية، ويطالب بحق تقرير المصير لشعوبها، وتُمارس الضغوط على روسيا لتسحب البقية الباقية من قواتها في تلك الجمهوريات؛ بينما يجعل قضية الشيشان مشكلة روسية داخلية، وينكر عليها حقها في تقرير مصيرها، بل تُشجّع موسكو على البطش بها!



احتمالات التسوية:

وبعد استعراضنا للقضية الشيشانية من أبعادها المختلفة ؛ يمكننا استنتاج بعض الملامح أو المعطيات التي يمكن من خلالها (استشراف) تسوية محتملة للصراع ، وتمثل تلك الملامح في الآتي :

- صعوبة وضع تصور مؤكد ونهائي لكيفية تسوية المشكلة على المدى القريب لكثرة العوامل المؤثرة المتعلقة بالقضية ، والتي يتصف بعضها بعدم الثبات .

- صعوبة توصل روسيا لحسم دائم للصراع بطريقة عسكرية (والشاهد : خلفية الصراعات بين الطرفين - الطبيعة الشيشانية) ؛ فضلاً عن أن كل تدخل عسكري روسي سابق في غير الشيشان أدى إلى الخروج عن الهيمنة (المجر ، تشكوسلوفاكيا) .

على المدى القريب لا يبدو اقتراب تسوية سلمية للقضية في ظل التصريحات والتحركات السياسية والعسكرية الروسية مع اشتداد الحرب على الإرهاب من جهة ، والإصرار الشيشاني على رفض أي بدائل سوى الاستقلال من جهة أخرى .

مع التوصل لأي تسوية محتملة على المدى البعيد لا يستبعد تفجر الصراع من جديد بعد فترة (الشاهد على ذلك الخلفية التاريخية وتجدد بعض عناصر الصراع) .

أهم السيناريوهات لاحتمالات التسوية المرتقبة :

السيناريو الأول : التبعية الكاملة لموسكو :

ويدور حول إمكانية تمكن روسيا من حسم المعركة بشكل نهائي عن طريق الخيار العسكري ، ومن ثم يتم القضاء على أي مقاومة شيشانية ، وفي هذه الحالة سوف تعمل موسكو على تثبيت دعائم الحكومة العميلة الموالية لها .

عوامل نجاحه : انتصار القوات الفيدرالية وسيطرتها الفعلية على الإقليم ، ونجاح موسكو في تعبئة الرأي العام المحلي والإقليمي لمصلحتهم ، مع الإصرار على أنها مسألة داخلية تتعلق بالسلامة الإقليمية لروسيا ، والتي تعمل في الوقت نفسه لمصلحة الجماعة الدولية بالقضاء على الإرهاب والأصولية الإسلامية .

الأساليب :

- الانتهاكات الصارخة للمقومات المادية والمعنوية للشعب ومحاولة إفراغ الإقليم من سكانه .

- التشكيك في شرعية مسخادوف أو سيطرته على المقاتلين ؛ مع وضع شروط أولية للتسوية في الشيشان بشكل لا توافق عليه الحكومة الشرعية هناك .

- زرع صراع شيشاني - شيشاني .



- استبعاد أي دور مستقبلي للرئيس الشيشاني مسخادوف ؛ لصعوبة الاتفاق معه على حل وسط يرضي موسكو بعيداً عن اقتراح الاستقلال التام .

ويعتبر هذا التصور من أضعف السيناريوهات المتوقعة حدوثها ؛ لأنه يشترط له القضاء على المقاومة الشيشانية والتي أخفقت القوات الروسية في القضاء عليها ، واعترفت بعجزها عن وقف هجماتها أو القضاء على مجموعاتها .

السيناريو الثاني : السيادة الوسيطة (نموذج تترستان ١٩٩٤م) :

ويعتمد هذا السيناريو على إمكانية نجاح الروس في تحقيق انتصارات عسكرية واسعة ، ولكن دون القدرة على الحسم أو تحقيق الاستقرار ، وفي الوقت نفسه استمرار المقاومة الشيشانية ، وخاصة تلك التي يقودها شامل باسييف .

إن مثل هذه المعادلة قد تؤدي بالضرورة إلى اقتناع الروس ، وجزء كبير من المقاومة الشيشانية المتمثلة في الرئيس الحالي (أصلان مسخادوف) بأنه من الأفضل التسوية السياسية للقضية عن طريق المفاوضات ، وسوف يعكس أي نوع من هذه الحلول حقائق الواقع ، وأهمها السيطرة الروسية العسكرية ، وكذلك استمرار المقاومة الشيشانية وصعوبة القضاء عليها .

العوامل : صعوبة تحقيق الطرفين للنصر الحاسم في أرض الواقع ، تزايد النزاع القائم بين القيادتين العسكرية والسياسية ، تدويل المسألة الشيشانية على نمط تيمور الشرقية وكوسوفا ، تزايد الضغوط الدولية للانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان ، عدم الاستقرار في شمالي القوقاز كنتيجة مباشرة للصراع أو ما يترتب عليه من موجات اللاجئين الشيشان إلى الجمهوريات المجاورة وتغيير التوازن الديموغرافي داخلها .

وفي حالة وقوع مثل هذا السيناريو ؛ فإن الأمور قد تجري على النحو الآتي :

أ - بقاء الشيشان ضمن الاتحاد الروسي وإلغاء فكرة الاستقلال .

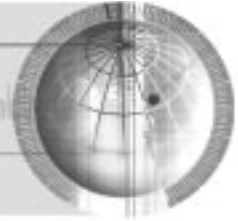
ب - إعطاء الشيشان وضعاً خاصاً ضمن الاتحاد الروسي يلبي الكثير من مطالب الاستقلال التي يطمح إليها الشعب الشيشاني .

ج - إجراء انتخابات رئاسية لتحديد الرئيس الشيشاني المقبل .

د - قد يلقي مثل هذا السيناريو دعم المجتمع الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ومجلس الأمن والتعاون الأوروبي .

وتبقى هناك مسألة في غاية الأهمية ، وهي موقف المقاومة الجهادية التي يقودها (شامل باسييف) ؛ فإنه من غير المتوقع أن يوافق (شامل باسييف) على مثل هذه التسوية ؛ انطلاقاً من إيمانه الراسخ بوجوب تحرير الشيشان من الاحتلال الروسي .





السيناريو الثالث : (المعاهدة الفيدرالية (نموذج أنجوشيا ١٩٩٢ م) :

الهدف : إرجاع الشيشان إلى مكانتها السابقة في عهد الاتحاد السوفيتي ، مع رفع مكانتها إلى الجمهورية أسوة بغيرها من جمهوريات الحكم الذاتي السابقة ، (نموذج أنجوشيا ١٩٩٢ م).

أو نمط العلاقات الثنائية بين روسيا وبعض الجمهوريات ، (نموذج تارتستان ١٩٩٤ م).

العوامل : تحديد هامش الاستقلال أو التبعية حسب السير الفعلي للقتال والنتيجة المتوقعة ، مدى تدخل أطراف خارجية في الصراع ولو من باب المساعدات الإنسانية ، قبول القيادة الشيشانية الحالية أو القادمة لهذا الخيار على أنه أفضل الحلول الممكنة في حالة ارتفاع الخسائر العسكرية وتزايد مأساة الشعب الشيشاني .

الوسائل : عقد اتفاقية ثنائية مع القيادة الشرعية للشيشان لاقتسام وتوزيع الاختصاصات .

السيناريو الرابع : الاستقلال التام (نموذج الشيشان ١٩٩٧ م) :

الهدف : إقرار استقلال الشيشان تماماً عن روسيا الفيدرالية .

الوسائل : الاتفاقيات الثنائية مع الضمانات الدولية ، تفعيل الاتفاقيات التي سبق لروسيا أن وافقت عليها عامي ١٩٩٦ م- ١٩٩٧ م ، حسم الوضع المؤجل للشيشان طبقاً لمعاهدة سلام ١٢ / ٥ / ١٩٩٧ م : الاعتراف بحق تقرير المصير وتحديد الوضع طبقاً لقواعد ومبادئ القانون الدولي المعترف بها عالمياً ، تحديد مجالات التعاون ما بين الدولتين .

وهو الخيار الشيشاني الوحيد المعروض حالياً على القيادة الروسية ، وضرورة اعتراف موسكو بالشيشان شخصاً من أشخاص القانون الدولي ؛ مع الحفاظ على علاقاتها بروسيا وتكوين علاقات مشتركة معها في مجالات الاقتصاد والدفاع والجمارك وحراسة الحدود والأجواء .

العوامل : عدم قدرة موسكو على حسم الأمور داخل الشيشان وتحولها إلى مأزق كبير بخسائر يومية في الاقتصاد والأفراد ، بما يعجز الحكومة الروسية عن تحمل مسؤولية الاستمرار في الحرب ، تزايد إدراك الجماعة الدولية لمأساة الشعب الشيشاني مع الرغبة في تحجيم القيادة الروسية الجديدة في الحدود السابقة لها بعد معارضاتها المستمرة للحد من التسليح ، اعتماد الخط البديل لبترول قزوين (باكو / جيهان) خاصة بعد الاتفاق على نقل بترول تركمانستان وكازاخستان عبر الخط نفسه ، بعيداً عن روسيا وفقدان الصراع هناك أهميته للجماعة الدولية .

سيناريوهات أمريكية وأوروبية للتسوية :

أما المشروع الأمريكي للتسوية فهو (البوسنة - ٢) ، والمقصود بها تغيير الراية من إسلامية إلى قومية وطنية ، وإبعاد الإسلاميين ، وسوف ينهال الدعم من كل جانب من الطلقة حتى الصاروخ في محاولة لضرب المقاومة وتشتيت فصائلها ، وقد اقتنع بالمشروع بعض المسؤولين الشيشانيين في الخارج ؛ بدعوى أنه ممكن الاستفادة من





هذا الدعم في الوقت الحاضر، ثم بعد النصر يفعلون ما يشاؤون، ويحول دون تنفيذ هذا المشروع رفض قادة المجاهدين في الداخل.

وهناك المشروع الأوروبي: وهو تقسيم الشيشان إلى قسمين: قسم جبلي يضم المناطق الجبلية والقبائل والرافضين للاحتلال الروسي، وفيه تقام دولة قبلية تحتكم إلى الأعراف القبلية، ويحكمها مجلس من زعماء القبائل، يختارون حاكماً من بينهم، وقسم آخر في المنطقة السهلية الذين يقبلون الانضمام للروس. وتكون (كوسفو- ٢) مع تعديل بسيط في السيناريو، وهو أن تأتي الأمم المتحدة هنا بدلاً من الناتو هناك مع إخراج الروس، وهذا المشروع هو الأخطر والمرشح الأقوى للتنفيذ، حيث إن الشعب قد تعب من القتال ويتمنى وقف الحرب بأي صورة، فالأغلبية مستعدة لتأييد من يأتي لهم بالسلام، وخاصة مع إخراج الروس؛ حيث سيقول لهم أي قائد يقبل المشروع إنه أخرج الروس مرة أخرى وأتى لهم بالرخاء، حيث بإمكان الأمم المتحدة أن تبني للشيشانيين المدارس والمستشفيات، والطرق، ومصانع النفط «المنهوب»، وتطارد المجاهدين أو (الأصوليين والواهبيين- كما يسمونهم).

وأما بوتين وقادة روسيا فسيقولون لشعبهم: إننا سوف نأمن شر الشيشان، ونسيطر عليهم بجنود من الأمم المتحدة- التي قد تكون من بينها دولاً إسلامية- بدون أن نخسر جندياً أو طلقة أو روبلاً واحداً، وستكون لنا الأولوية- أي للروس- في التعاملات السياسية أو التجارية والاستخبارية- مثلاً..

وبهذا يتمكن الغرب من نزع فتيل القنبلة الإسلامية في القوقاز كما فعلوا في البلقان وأفغانستان؛ لتأمين مصادر الطاقة التي يسيطرون عليها في آسيا الوسطى؛ بالإضافة إلى زحزحة روسيا خطوة إلى الخلف.

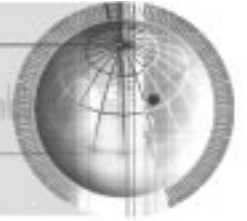
وتتعدل أو ترجح إحدى هذه السيناريوهات حسب مجريات الأمور ميدانياً، وحسب ما يطرأ على مواقف الأطراف الدولية الفاعلة.

وقد يكون من المحتمل قبول المقاومة لبعض الشروط وتقديم بعض الضمانات للجانب الروسي للمحافظة على قدر مقبول لدى الطرفين من تحقيق المصالح الاقتصادية والأمنية؛ بما لا يتعارض مع خيار الاستقلال في سبيل التعجيل بوقف نزيف الدم وحل مشكلة المهجرين، والتفرغ لإعادة بناء الدولة والمؤسسات التي دمرتها الحرب.

وفي ظل المراهنة على خيار المقاومة واستمرارها، وتفعيل جوانب النقص فيها؛ قد تضطر روسيا- ومعها الغرب- لقبول تسوية سلمية تراعي مبدأ تقرير المصير، مع بعض الضمانات المتعلقة بكبح جماح المقاومة في نشر الصلح في بقية القوقاز، ويستدعي هذا الحل وجود طرف إسلامي «معتدل» يلقي قبولاً لدى أطراف الصراع يتم التعامل معه، مع ما يبثه الوجود الأمريكي في جورجيا والقواعد العسكرية التي انتشرت بالمنطقة بجوار الشيشان من طمأنينة الغرب لإمكانية سهولة التحرك إذا استدعى الأمر ذلك.

وعلى الرغم من أهمية العنصر الأمني والبعد الحيوي للشيشان بالنسبة لروسيا؛ فإن النظرة الآنية الروسية للشيشان قابلة للتغير الدائم أو المؤقت في ظل حسابات الربح والخسارة، وقياساً على نماذج أمنية (جورجيا





وكوبا) كانت إلى عهد قريب تمثل بعداً استراتيجياً أمنياً لروسيا؛ حدث فيها تغيير مرتبط بتغيير الوضع الداخلي الروسي وتغيير الأوضاع العالمية وحسابات المصالح.

ولا شك أن هناك مأزقاً حقيقياً تواجهه روسيا في الشيشان؛ بسبب نزيف الدم والخسائر الضخمة التي لا يستطيع اقتصادها الضعيف تحمله، وتطويل أمد الصراع ليس في مصلحة روسيا، كما أن هناك في المقابل مأساة حقيقة يعيشها الشيشانيون (يدفع ثمنها الشعب الشيشاني)، ويظل خيار المقاومة وتفعيل أوجهها المختلفة (السياسة والإعلامية و...) هو الركيزة الأساسية لتحديد شكل تسوية محتملة توقف نزيف الدم على الأرض الشيشانية ولو إلى حين.

الدور الإسلامي المستقبلي:

الدور الإسلامي وإن كان تأثيره الحالي ضعيفاً في الصراع، وفي الدفع به إلى تسوية محتملة، وخاصة في ظل الانشغال بالقضايا الأخرى وعلى رأسها القضية الفلسطينية، ولضعف الدور الإسلامي السياسي بصورة عامة، والضغط المتمثلة في الحرب على الإرهاب؛ إلا أن وضع الدول الإسلامية بما يحتويه من أبعاد استراتيجية وقوة اقتصادية إذا أحسن استغلاله قد يكون بعداً محورياً في التعجيل بتسوية سلمية، وهذا الدور قد يكون أكثر أهمية، ويبرز بصورة أكبر في حال الوصول الفعلي لتسوية، حيث إن من أكبر المشكلات التي تواجه مسلمي الشيشان بعد التسوية هي قضية البناء التي تحتاج إلى دور إسلامي فاعل.

وبالرغم من الوضع الدولي المتأزم والحرب على «الإرهاب» التي نالت المقاومة الشيشانية منها جانبا؛ فإن الدول الإسلامية يمكنها التحرك على مستويات مختلفة سياسية وإعلامية وإغاثية، وينبغي ذلك التحرك على سند شرعي - فضلاً عن دعم قانوني - من حالات مشابهة في حق تقرير المصير، ومن الوضع المأساوي الذي يعيشه الشيشانيون.

ولا ننسى أن المصالح الاقتصادية الروسية في دول العالم الإسلامي والمهددة بالدور الأمريكي المتعظم؛ دفعت روسيا نحو تفعيل علاقاتها مع الدول الإسلامية عامة والعربية خاصة، ومحاولة بحث الجوانب المختلفة لاستثمار هذه العلاقة للنهوض من الكبوة الاقتصادية التي تعاني منها روسيا.

وعلى ضوء المعطيات السابقة؛ قد يظهر لنا أهم الإمكانيات المتاحة للتحرك من خلالها لدعم مسلمي الشيشان:

- القيام بعمل دبلوماسي نشيط لتسوية القضية، ووقف المجزرة التي يتعرض لها الشعب الشيشاني المسلم، ويمكن الاستفادة من العلاقات التاريخية بين روسيا وعدد من الدول الإسلامية المهمة؛ مع الأخذ بعين الاعتبار أن ثمة أطرافاً في روسيا - وخاصة الصهيونية النشيطة - تسعى إلى إثارة المخاوف من الإسلام والمسلمين، وزرع العداوة بينهم وبين الروس بدعوى محاربة التطرف الإسلامي.

- وقد يكون من المناسب أن يقوم طرف إسلامي تربطه علاقات طيبة بروسيا - (مصر، سوريا، السعودية)



ربما كانوا الأقدر على فعل هذا - بتبني مبادرة تحوز دعم وتأيد الدول الإسلامية لوقف الانتهاكات الجسيمة ضد الشعب الشيشاني ، وتسوية القضية سلمياً في إطار حق تقرير المصير استناداً لحالات مشابهة .

- تفعيل دور المنظمات الإغاثية الرسمية ودعمها للقيام بدور نشط في إغاثة مسلمي الشيشان والسماح بإيصال المساعدات الإنسانية لمستحقيها ؛ استناداً إلى عدة قرارات دولية بهذا الشأن ، فضلاً عن دعوات متكررة من منظمة المؤتمر الإسلامي التي تسعى روسيا إلى التقرب منها ؛ بالإضافة إلى نداءات مؤتمر القمة الإسلامي بهذا الصدد .

- تفعيل دور الأزهر في جانب التثقيف الإسلامي والمنح الدراسية ؛ باعتباره أكبر هيئة ومؤسسة قادرة على وجود حقيقي وفاعل هناك ، فالأزهر في عقول مسلمي آسيا هو رمز الإسلام ، ومنازة التوحيد ، وجامع العلوم .

- إن الشيشانيين مطالبون - أكثر من غيرهم - بتبني قضيتهم ، وتفعيل التعاطف معها عربياً وإسلامياً ، ولا يقصد من ذلك التقليل من جهودهم ودورهم البارز الذي قاموا ويقومون به في خدمة قضيتهم ، لكن عدالة قضيتهم تستدعي منهم اهتماماً أكبر .

- إن جهود الدعم المبذولة لمسلمي الشيشان يجب أن تشمل مجالات متنوعة ؛ لا تقف عند حدود المصاحف ورحلات الحج ، ويجب ألا تقف تائهة بعيدة عن تنسيق المواقف ، وعدم الاكتفاء بالمبادرات الفردية العفوية .

- لا بد أن ترقى جهود المساعدة فوق مستوى تحقيق أهداف أيديولوجية للجهات المانحة ، وألا يكون الهدف هو دعم مركز دولة عربية أو إسلامية أو تحقيق مكاسب شخصية .

يحتج بعض مدّعي الحكمة ؛ بأن لا مصلحة لنا في القيام بتحركات واتخاذ مواقف قد تثير علينا حفيظة روسيا الصديقة ، والتي يمكن استقطابها لنصرة قضايانا العربية في مواجهة الهيمنة والتفرد الأمريكي . والحجة نفسها يطرحونها بخصوص القضية الكشميرية ، فلا مسوغ في رأيهم لخسارة الهند صديقة العرب التاريخية .

وينسى هؤلاء أن العالم تغير ، وتغيرت معه مواقف أصدقاء أمس وحلفائه . وأن كثيراً من المبادئ والقواعد العامة التي كانت تتحكم في العالم في فترة سابقة ؛ قد تغيرت وحل محلها معادلات ونظريات جديدة لا تعترف ولا تنظر إلا بالنظرة النفعية .

وأخيراً . . إن مواصلة تجاهل المسلمين للقضية الشيشانية والشعب الشيشاني المسلم الذي يعاني من ويلات حرب ظالمة ؛ لهو خطأ كبير ينبغي التوقف عن اقترافه ؛ فقد أظهر الشعب الشيشاني روحاً قتالية عالية ، وفداية ، واستعداداً غير محدود للتضحية ، وصموداً أسطورياً ، وعزماً على السعي نحو التحرر مهما كان الثمن ، ولذا يجب على المسلمين التحرك لدعم قضية مسلمي الشيشان العادلة في المطالبة بالاستقلال ؛ لما للتخاذل عن القيام بهذا الدور من أسوأ الأثر لخسران المسلمين لقضاياهم القضية تلو الأخرى !

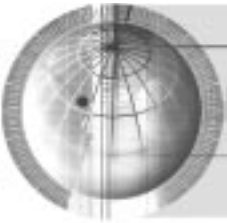
مصادر البحث

الدراسات والبحوث:

- ١ - أ. د محمد السيد سليم ، (المشكلة الشيشانية : أصولها وآفاقها) ، أوراق آسيوية ، العدد (١) أبريل ١٩٩٥ م ، التعريف بالشعب الشيشاني .
- ٢ - د. محيي الدين الخطيب ، (المسألة الشيشانية . دراسة في حق تقرير المصير واحتمالات التسوية) ، أوراق آسيوية ، العدد ٣١ / ٤ / ٢٠٠٠ م ، مركز الدراسات الآسيوية .
- ٣ - أ. د. نيفين عبد الخالق مصطفى ، (الأبعاد الراهنة للمشكلة الشيشانية) ، أوراق آسيوية ، العدد (١) أبريل ١٩٩٥ م .
- ٤ - د. محمد فراج ، (الغزو الروسي للشيشان : الدوافع والانعكاسات الإقليمية والدولية) ، أوراق آسيوية ، العدد (١) أبريل ١٩٩٥ م .
- ٥ - مراد بطل الشيشاني ، (الشيشان والحركة الإسلامية بعد ١١ سبتمبر) ، السياسة الدولية ، يوليو ٢٠٠٢ م .
- ٦ - مراد بطل الشيشاني ، (السلام في الشيشان : الفرص والقيود) ، السياسة الدولية - العدد ١٥٤ - أكتوبر ٢٠٠٣ م .
- ٧ - محمود عبد الرحمن ، (تاريخ القوقاز - نسور الشيشان في مواجهة الدب الروسي) ، بيروت : دار النفائس .
- ٨ - (اتفاق روسيا وجورجيا على تأمين الحدود . وأثره على المقاومة الشيشانية) ، الشاهد للدراسات السياسية والاستراتيجية .

دوريات:

- ١ - د. عبد المنعم حسن ، (جذور الحركة الإسلامية لمسلمي الاتحاد السوفياتي المنحل) ، الفكر الجديد ، العدد (٥) ، السنة الثانية - آذار (مارس) ١٩٩٣ م / رمضان ١٤١٣ هـ .
- ٢ - بيتر بينارت Peter Beinart (أكاذيب في وقت الحرب) ، مجلة الفسطاط ، ١٥ / ١٠ / ٢٠٠١ م .
- ٣ - هاني شادي ، (الحرب الشيشانية الثانية تقترب من عامها الخامس) ، مجلة الأسبوع ، الاثنين ١٨ أغسطس ٢٠٠٣ م ، ٢٠ جمادى الآخرة ١٤٢٤ هـ - العدد ٣٣٧ السنة (٧) .
- ٤ - (مسخادوف : فشل تام للمغامرة العسكرية الروسية في الشيشان) (٤ / ١٠ / ٢٠٠٣ م) ، الرئيس الشيشاني في حديث خاص لصحيفة / لوموند / الفرنسية .
- ٥ - هاني شادي ، (الشيشان بعد خطاب وباسايف) ، صحيفة الوطن العمانية ، ٧ / ٥ / ٢٠٠٠ م .



- ٦ - جريدة السفير اللبنانية، ٢٦/٦/٢٠٠٠ م.
- ٧ - الوطن القطرية، ١١/١١/٢٠٠٣ م.
- ٨ - المحامي البحراني، (صحيفة المغترب المسلم)، (السنة الثانية - العدد الخامس - ١٤٢١ هـ).
- ٩ - فيكين شيتاريان، (حرب استنزاف الشيشان)، ليموند الدبلوماسية، عدد مارس ٢٠٠٢ م.
- ١٠ - مجلة الفجر، أعداد مختلفة.
- ١٢ - موسى يوسوبوف، (عملية سياسية داخلية)، رئيس قسم العلوم الاجتماعية في جامعة غروزني، (<http://www.mondiploar.com>)، صحيفة ليموند.
- ١٣ - عاطف الجولاني، (لماذا نتجاهل الشيشان؟)، جريدة السبيل الأردنية، ٨/٧/٢٠٠٣ م.
- ١٤ - هشام الهلالي، (مبادرات روسية جديدة للخروج من مأزق الشيشان)، آفاق عربية، عدد ٦٤١ الخميس، الموافق ٢٢ من ذي القعدة ١٤٢٤ هـ / ١٥ من يناير ٢٠٠٤ م.
- ١٥ - خالد الخيرو، (الشيشان وتيمور.. تشابه الحدث واختلاف الجغرافيا والنتائج لم يعد هنالك مجال للصمت على حروب رمادها جثث المسلمين)، جريدة الزمان ٢٣/١/٢٠٠٢ م.
- ١٦ - صحيفة الوطن العمانية، أعداد مختلفة.
- ١٧ - مجلة «شباب» السعودية، أعداد مختلفة.

الشبكة العنكبوتية

- ١ - الشيشان ضحية صفقة بين روسيا وأمريكا، شعبان ١٤٢٠ هـ، ٢٤/١١/١٩٩٩ م (موقع حزب التحرير).
- ٢ - د. عاطف معتمد عبد الحميد، (القوقاز.. جغرافيته وتاريخه وأهميته عبر العصور)، (إسلام أون لاين ١١/٣/٢٠٠٢ م).
- ٣ - د. حمزة زوبع، (الشيشانيون.. الحرية أو الموت) (إسلام أون لاين) ١٦/١٢/١٩٩٩ م.
- ٤ - شعبان عبد الرحمن، (آسيا الوسطى.. أطماع عمرها خمسة قرون!)، (إسلام أون لاين ١/١١/٢٠٠١ م).
- ٥ - شعبان عبد الرحمن، (ماذا يفعل الأمريكان في بلاد الأباطرة المسلمة؟!)، (إسلام أون لاين ١٤/٣/٢٠٠٢ م).
- ٦ - د. عاطف معتمد عبد الحميد، (أمريكا وروسيا.. ما محبة إلا بعد عداوة!)، (إسلام أون لاين ١٠/٦/٢٠٠٢ م).



- ٧- عبد القادر عبد الهادي ، (روسيا والقوقاز وآسيا الوسطى سياسة قديمة في وعاء جديد)، (إسلام أون لاين ٢٤/٦/٢٠٠٠م).
- ٨ - د. نورهان الشيخ ، (إيران وروسيا . . محور إستراتيجي ضد الغطرسة الأمريكية)، (إسلام أون لاين ٧/٦/٢٠٠١م).
- ٩ - عبد القادر عبد الهادي (ملاحح التسوية المحتملة في الشيشان)، (إسلام أون لاين، ٥/٥/٢٠٠١م).
- ١٠ - (ضمير أحمد، (الروس يمنعون «التراويح» بجنوب الشيشان، (إسلام أون لاين ٢٩/١٠/٢٠٠٣م).
- ١١ - د. حمزة زوبع ، (الشيشان . . بين خطة الكنس وتداعيات ١١ سبتمبر)، (إسلام أون لاين ٣١/١/٢٠٠٢م).
- ١٢ - د. عاطف معتمد عبد الحميد، (هل تفرط روسيا في الشيشان؟)، (إسلام أون لاين ٢٦/١٠/٢٠٠٢م).
- ١٣ - د. عاطف معتمد عبد الحميد، (المقاومة الشيشانية . . روعة النجاح أم رقصة الطائر الذبيح؟)، (إسلام أون لاين ١٢/٨/٢٠٠٣م).
- ١٤ - د. محيي الدين قاسم ، (الروس وتصفية قضية الشيشان)، (إسلام أون لاين يونيو ٢٠٠٠م).
- ١٥ - علي البغدادي - الكويت ، (حرب الشيشان، حسابات الربح والخسارة)، (إسلام أون لاين يناير ٢٠٠٠م).
- ١٦ - (النفط والجيواستراتيجيا المعاصرة)، مركز التخطيط الفلسطيني، إصدارات مكتب المدير العام (www.oppc.pna.net/slf10.htm).
- ١٧ - (هل سينتصر الشيشانيون؟!)، (الشيشان رحلة صراع مريرة من أجل البقاء)، (موقع نداء الإيمان ١٥/٥/٢٠٠٢م).
- ١٨ - (المؤامرات الأوروبية في آسيا والقوقاز)، (صوت القوقاز).
- ١٩ - فرنسيس بويل ، (اعتراف روسيا بالاستقلال)، (موقع المنسيون ١/٧/٢٠٠٢م).
- ٢٠ - فهيم طاشتكين ، (مناقشات قانونية حول استقلال الشيشان)، (موقع المنسيون ١/٧/٢٠٠٢م).
- ٢١ - (عملية مسرح موسكو . . ماذا ربح المجاهدون منها وماذا خسروا؟)، (الأهداف ٢١/١/٢٠٠٤م)، (٢/١)، (صوت القوقاز).